﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾ [المُزّمّل: 20]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ تتّصل بأوّلِ السُّورةِ، وتتّصلُ بالآيةِ الّتي قبلَها

فأمَّا اتّصالُها بأوّلِ السُّورة؛ فظاهرٌ على الجملةِ؛ لِما فيهما مِن الحديثِ عن قيامِ اللّيل، وصريحُ هذهِ الآيةِ الأخيرةِ في السُّورةِ يُنادي على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقومُ مِن اللّيلِ قبلَ نزولِ الآيةِ، وأنَّ طائفةً مِن أصحابِه كانوا يقومونَ؛ عملًا بالأمرِ الَّذي في أوّلِ السُّورةِ مِن قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الآية، فتعيَّنَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت؛ للتَّخفيفِ عنهم جميعًا؛ لقولِه فيها: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، فهي ناسخةٌ للأمرِ الَّذي في أوّلِ السُّورة[1]، فكأنَّ ما في مطلعِ السُّورةِ هو الحدُّ الأعلى في قيامِ اللّيلِ، وما في مقطعِها هو الحدُّ الأدنى، وإنّما ذكَرَ تعالى هذا الحدَّ الأدنى؛ لأنَّ ما في سياقِ السِّباقِ مِن ذِكرِ يومِ القيامةِ وأهوالِه وعذابِ المُكذِّبينَ فيه قد يكونُ سببًا في أنْ يُغالِيَ بعضُ النَّاسِ في العبادةِ، وأنْ يَشُقَّ على نفسِه، ورُبَّما شقَّ على غيرِه، فنبَّهتْ هذهِ الآيةُ على الاقتصادِ تخفيفًا؛ لِما يلحقُ الإنسانَ مِن النَّصَبِ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 278.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 215.

وأمّا اتّصالُها بالآيةِ الَّتي قبلها؛ فوجهُه دلالةُ المُجاوَرَةِ، مِن أنَّ أجلَّ السُّبُلِ إلى الرَّبِّ ﷻ هو ما بدأتْ بهِ السُّورة، وتأسَّسَ المعنَى فيها عليهِ، وهو قيامُ اللّيلِ.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدْنَىٰ﴾: (دنو) أصلٌ واحدٌ يُقاس بعضُه على بعضٍ، وهو المُقارَبة، ومِن ذلك الدَّنيُّ، وهو القريبُ، من: دَنا يَدْنو، وسُمّيتِ الدُّنْيا؛ لِدُنوِّها، والنِّسْبةُ إليها دُنْياويٌّ، والدَّنيُّ مِن الرِّجالِ: الضَّعيفُ الدُّونُ، وهو مِن ذاكَ؛ لأنَّه قريبُ المأخَذِ والمنزلةِ، ودانيْتُ بينَ الأمريْنِ: قاربتُ بينهما، وقولُه تعالى هنا: ﴿أَدْنَىٰ﴾ اسمُ تفضيلٍ مِن هذا البابِ، وهو مستعارٌ لمعنَى الأقلِّ؛ لأنَّ المسافةَ الَّتي بينَ الشَّيءِ والأدنى منهُ قليلةٌ[1].

2) ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾: (طوف) أصلٌ يدلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، كأنَّهُ موصولٌ به، وأنْ يَحُفَّ بهِ[2]، ومنهُ: الطّائفُ، وهو الَّذي يدورُ حولَ البيوتِ حافظًا لها، والطَّوافُ بالبيتِ العتيقِ، والطّائفةُ مِنَ النّاسِ: الجماعةُ منهُم، والطّائفةُ مِنَ الشَّيءِ: القِطْعةُ منهُ[3]، والمرادُ بالطّائفةِ هنا: جماعةٌ مِنَ الصَّحابةِ ﷺ فيها أهليَّةُ التَّحلُّقِ بإقبالهم على الرَّسولِ ﷺ وإقبالِ بعضِهم على بعضٍ[4].

3) ﴿يُقَدِّرُ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كلِّ شيءٍ، والقَدْرُ والقَدَرُ: قضاءُ اللهِ سبحانَهُ الأشياءَ على مَبالغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها[5]، ويُقالُ: الأمورُ تَجْري بقَدَرِ اللهِ، ومِقْدارِهِ، وتقديرِهِ، وأقدارِهِ، ومَقاديرِهِ[6]، ويقولونَ: رجلٌ ذو قُدرةٍ ومَقْدِرةٍ، أي: يَسارٍ، يعني: أنَّهُ يَبْلُغُ بغِناهُ مِنَ الأمورِ المَبْلَغَ الَّذي يوافقُ إرادتَهُ[7]، والتَّقديرُ: تبيينُ كمّيَّةِ الشَّيءِ[8]، ومعنى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: واللهُ يعلمُ مقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ على حقائقِها[9].

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (دنى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(3) الأصفهاني، المفردات: (طوف).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(6) الزمخشري، أساس البلاغة: (قدر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(8) الأصفهاني، المفردات: (قدر).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 53.

4) ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾: (حصي) أصلٌ يدلُّ على العدِّ[1]، ومِنْ ذلكَ: الإحصاءُ، وهو التَّحصيلُ بالعددِ، يقالُ: أحصيتُ كذا، وذلكَ مِنْ لفظِ الحصى، واستعمالُ ذلكَ فيهِ، مِنْ حيثُ إنَّهم كانوا يعتمدونَهُ بالعدِّ، كاعتمادِنا فيهِ على الأصابعِ[2]، والمرادُ بعدمِ الإحصاءِ هنا: عدمُ إطاقةِ معرفةِ حقائقِ اللَّيلِ والنَّهارِ[3]، أو عدمُ إطاقةِ قيامِ اللَّيلِ على المقاديرِ المذكورةِ إلّا بشدَّةٍ ومشقَّةٍ[4].

5) ﴿يَضْرِبُونَ﴾: (ضرب) أصلٌ يدلُّ على إيقاعِ شيءٍ على شيءٍ[5]، أو إيقاعُ جسمٍ على جسمٍ؛ قصدًا للتَّأليمِ والإيلامِ[6]، كضربِ الشَّيءِ باليدِ، والعصا، والسَّيفِ، ونحوِ ذلكَ، ضَرَبَهُ بِسَيْفٍ أَوْ غَيْرِهِ، وضَرَبْتُ مَعَ القَوْمِ بِسَهْمٍ ساهَمْتُهُم، وضَرَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ: حَجَرْتُ عَلَيْهِ، أَوْ أَفْسَدْتُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وضَرَبَ اللّٰه مَثَلًا وصَفَهُ، وبَيَّنَهُ، وضَرَبَ عَلَى آذانِهِم: بَعَثَ عَلَيْهِم النَّوْمَ، فَناموا، ولَمْ يَسْتَيْقِظوا، وضَرَبْتُ عنِ الأمْرِ، وأَضْرَبْتُ بِالألِفِ أَيْضًا: أَعْرَضْتُ تَرْكًا أَوْ إهْمالًا[7]، والضَّربُ في الأرضِ: الذَّهابُ فيها، وضربُها بالأرجلِ[8]، والمرادُ بهِ هنا: المسافرةُ للتِّجارةِ وتحصيلِ العلْمِ، ونحوِ ذلكَ[9].

6) ﴿يَبْتَغُونَ﴾: (بغي) أصلٌ يدلُّ على طلبِ الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَغَيْتُ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ، وبَغَيْتُكَ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ لكَ، والبُغْيةُ: الحاجةُ[10]، قالَ الرّاغبُ: البغيُ طلَبُ تجاوُزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى، تجاوزَهُ أم لم يَتجاوزْهُ، فتارةً يُعتبَرُ في القَدر الَّذي هو الكميَّة، وتارةً يعتبرُ في الوصف الذي هو الكيفيَّةُ، يقالُ: بَغَيْتُ الشّيءَ؛ إذا طلبتَ أكثرَ ما يَجِبُ، وابتَغَيْتُ كذا، فالابتغاءُ: الاجتهادُ في الطَّلبِ[11]، وهو المرادُ هنا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصي).
(2) الأصفهاني، المفردات: (حصي).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 53.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559.
(5) الأصفهاني، المفردات: (ضرب).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ضرب).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (ضرب).
(8) الأصفهاني، المفردات: (ضرب).
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 258.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(11) الأصفهاني، المفردات: (بغي).

7) ﴿وَأَقْرِضُواْ﴾: (قرض) أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلُّ على القطع، يُقال: قرضْتُ الشّيءَ بالمِقْراضِ، والقَرْضُ: ما تُعْطيهِ الإنسانَ مِن مالِكَ؛ لِتُقْضاهُ، وكأنَّه شيءٌ قد قطعْتَه مِن مالِكَ؛ بشرطِ ردٍّ بدلِه، والقِراضُ في التِّجارةِ: هو مِن هذا، وكأنَّ صاحبَ المالِ قد قَطَعَ مِن مالِه طائفةً، وأعطاها مُقارَضَةً؛ ليتَّجِرَ فيها[1]، والمقصودُ بالإقراضِ هنا الإنفاقُ، وهو عند بعض المفسِّرين عامٌّ، يشملُ الإنفاقاتِ المفروضة والمندوبة، وعند بعضٍ آخَرَ يختصُّ بالإنفاقاتِ (الصّدقات) غير الواجبةِ[2].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّخفيفُ عن العبادِ يستدعي الشُّكرَ بالطّاعةِ

يقولُ تعالى لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنَّ ربَّكَ يا محمَّدُ يعلمُ أنَّكَ تقومُ زمانًا أقلَّ مِنْ ثلثي اللَّيلِ مصلّيًا، وتقومُ نصفَهُ وثلثَهُ، وجماعةٌ مِن أصحابِكَ كذلك، واللّهُ يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ بالسّاعاتِ والأوقاتِ، عَلِمَ ربُّكم أيُّها القومُ الَّذينَ فُرِضَ عليهم قيامُ اللَّيلِ أنْ لن تُطيقوا قيامَهُ، فخفَّفَ عنكم، فاقرؤوا ما تيسَّرَ لكم مِنَ القرآنِ في صلاتِكم، أوْ صلّوا ما استطعتُم، علمَ أنْ سيكون منكم أهلُ مرضٍ، قد أضعفَهم المرضُ عن قيامِ اللَّيلِ، وآخرونَ يسافرونَ في الأرضِ، يبتغونَ مِنْ فضلِ اللّهِ في تجارةٍ، أوْ في طلبِ علمٍ، أوْ نحوِ ذلكَ، فأضعفَهم ذلكَ عن قيامِ اللَّيلِ، وآخرونَ يُجاهدونَ العدوَّ، فيقاتلونَهم في نُصرةِ دينِ اللّهِ، فرحمَكم اللّهُ، وخفَّفَ عنكم، فاقرؤوا ما تيسَّرَ مِنَ القرآنِ، وأقيموا الصَّلواتِ الخمسَ في اليومِ واللَّيلةِ، وأعطوا الزَّكاةَ المفروضةَ في أموالِكم أهلَها، وأنفقوا في سبيلِ اللّهِ مِن أموالِكم، وما تفعلوا مِنْ خيرٍ لأنفسِكم في الدّارِ الدُّنيا، مِنْ صدقةٍ أو نفقةٍ تنفقونَها في سبيلِ اللّهِ، أو غيرِ ذلكَ مِنْ نفقةٍ في وجوهِ الخيرِ، أو عملٍ بطاعةِ اللّهِ، مِنْ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (قرض).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 287.

صلاةٍ، أو صيام، أو حجٍّ، أو غيرِ ذلكَ مِن أعمالِ الخيرِ في طلبِ ما عندَ اللّهِ؛ تَجدوهُ عندَ اللّهِ يومَ القيامةِ في مَعادِكم هو خيرًا لكم ممّا قدَّمتم في الدُّنيا، وأعظمَ ثوابًا، واسألوا اللّهَ غفرانَ ذنوبِكم؛ يصفحْ لكم عنها، إنَّ اللّهَ ذو مغفرةٍ لذنوبِ مَنْ تابَ مِنْ عبادِهِ مِنْ ذنوبِهِ، وذو رحمةٍ أنْ يعاقبَهم عليها مِنْ بعدِ توبتِهم منها[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، جيءَ بهِ؛ للتَّخفيفِ عمَّن يقومُ اللَّيل، ويجتهدُ في ذلكَ[2]، ببيانِ أنَّ هناكَ مَن يمنعُهُ العذرُ مِنَ الإكثارِ مِن قيامِ اللَّيلِ، وبالتَّنبيهِ على أنَّ المطلوبَ هو إتيانُ المرءِ بما يستطيعُ، ويجوزُ أنْ يكونَ جوابَ سؤالٍ يُثيرُه قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، وهو: ما هذا السّبيلُ؟ فالنَّفْسُ تتحرَّكُ لمعرفتهِ بعدَ ما رهَّبَتْها السُّورةُ بعذابِ المُكذِّبينَ وذِكْرِ اليومِ الَّذي يجعلُ الولدانَ شيبًا، فكانت هذه الآيةُ استئنافًا بيانيًّا؛ فغابتِ الواوُ، وأوَّلُ هذهِ السُّبُلِ المعروضةِ في الآيةِ قيامُ اللّيلِ، الَّذي بدأتْ به السُّورةُ، فهو عمدةُ الوصولِ إلى رضا اللّه ورضوانِهِ في الدُّنيا والآخرة في السُّورة.

**لا يُكلِّفُ اللهُ نفسًا فوقَ طاقتِها**

### سرُّ افتتاحِ الكلامِ بذِكْرِ الرَّسولِ وعملِه:

افتتاحُ الكلامِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، يُشعِرُ بالثَّناءِ على النَّبيِّ ﷺ؛ لوفائِه بحقِّ القيامِ الَّذي أُمِرَ به، وأنَّه كان يَبسُطُ إليه، ويهتمُّ به؛ ثمَّ يقتصِرُ على القدرِ المُعيَّنِ فيه النِّصْفِ، أو أنقصَ منه قليلًا، أوْ زائدٍ عليه، بل أخَذَ بالأقصى؛ وذلك ما يقْرُب مِن ثُلُثَي اللَّيل، كما هو شأنُ أولي العَزمِ، نحو ما قال النَّبيُّ ﷺ في

**افتتاحُ آخرِ آيةٍ بذلكَ جعلَها تُقابِلُ ما في مطلعِ السُّورةِ**

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 697 - 700، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 258 - 260.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28 - 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 278.

قوله تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ [القصص: 29]: إنَّه قضَى أقْصَى الأجلَيْنِ، وهوَ العشرُ سُنونَ[1]، ففي أوَّلِ السُّورةِ تكليفٌ بالقيام في اللَّيل، وفي آخِرِها تقريرٌ لطاعته ﷺ حتّى اقتدى به طائفةٌ مِن الَّذين معه، ففيه أيضًا ثناءٌ على أصحابِهِ أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾؛ لوفائِهم بحقِّ قيامِ اللَّيلِ، واهتمامِهم به، كما اهتمَّ به رسولُهم ﷺ، ففي افتتاح الكلامِ بذكرهم جميعًا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى مطَّلعٌ عليهم وعلى أعمالِهم، وأنَّه قابلُها، وجازيهم عليها، وقد أنزلَ بالتَّنبيهِ على ذلكَ قرآنًا يُتْلَى إلى قيامِ السّاعةِ.

**الثَّناءُ على العملِ دليلُ قَبولِه، والمُجازاةِ عليهِ بالحُسنَى**

### بلاغةُ الكنايةِ في ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾:

الإخبارُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ مرادٌ بِهِ الكنايةُ عن الرِّضا عن النَّبيِّ ﷺ، والطّائفةِ الَّذينَ معَهُ، فيما فعلوا؛ لأنَّهم أرضَوا به ربَّهم؛ بقرينة وقوعِ ذلك الكلامِ في مقطعِ السُّورةِ، ووقوعِ التَّكليفِ بقيامِ اللّيلِ في أوّلها، فالتَّكليفُ والثَّناءُ على فعلِه واردانِ في سياقٍ كلِّيٍّ واحدٍ، وهو كنايةٌ عن صفةٍ كنايةٌ قريبةٌ واضحةٌ؛ لعدمِ تعدُّدِ الوسائطِ، والمقصودُ بالكلامِ في نورِ الكنايةِ: التَّمهيدُ للتَّخفيفِ المذكورِ في قولِهِ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إلى آخرِ الآيةِ؛ ليُعْلَمَ أنَّه تخفيفُ رحمةٍ وكرامةٍ، ولإفراغ بعضِ الوقتِ مِن النّهارِ؛ للعملِ والجهادِ[2].

**في التَّوكيدِ لَفْتٌ إلى الرِّضا والقَبولِ والمُجازاةِ بالإحسانِ**

### سِرُّ توكيدِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾:

أُكِّدَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ وتقديمِ المُسندِ إليه على الخبرِ الفعليِّ؛ للاهتمامِ به[3]، كيفَ لا؟ وهو ثناءٌ على النَّبيِّ ﷺ والمقتدينَ بِهِ في الاجتهادِ في قيامِ اللَّيلِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 282.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 280.

وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ اللّهَ تعالى لا يغفلُ عن أعمالِ عبادِهِ الصّالحةِ، وإنْ كانَتْ في جوفِ اللَّيلِ بعيدًا عن أعينِ البشرِ، وأنّه تعالى مُراقِبٌ أعمالَ الرَّسولِ والطّائفةِ الَّتي معَه ومُجازيهم علَيها.

**بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِهِ ﷺ:**

تشريفُ النَّبيِّ بالانتسابِ للمُحسِنِ سبحانَهُ

جيءَ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ، مضافًا إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لمزيدِ اللُّطفِ والكرمِ[1]، والمعنى: إنَّ المُدبِّرَ لأمرِكَ على ما يكونُ إحسانًا إليكَ ورِفقًا بكَ وبأمَّتِكَ يعلمُ أنَّكَ تقومُ ... إلخ[2]، وفي الإضافةِ أيضًا تشريفٌ لهُ ﷺ بالانتسابِ إليهِ تعالى، وفي التَّعبيرِ بالرَّبِّ توطئةٌ لجريانِ معنَى المُجازاةِ بالحسنى في الكلامِ، على القيامِ باللّيلِ، وللإحسانِ إلى الرَّسولِ والطّائفةِ الَّتي معَه بالتَّخفيفِ عليهم المذكورِ في الآيةِ.

**دلالةُ المضارعةِ في ﴿يَعْلَمُ﴾:**

تجدُّدُ العلمِ بتجدُّدِ قيامِ اللَّيلِ فيه حثٌّ لطيفٌ على تجديدِ ذلكَ القيامِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾؛ للدِّلالةِ على استمرارِ ذلكَ العلمِ وتجدُّدِهِ بتجدُّدِ القيامِ؛ وذلكَ إيذانٌ بأنَّهُ في محلِّ الرِّضا منهُ تعالى[3]، وفيهِ أيضًا تنبيهٌ على عظمتِهِ ﷻ، وأنَّ علمَهُ القديمُ يتعلَّقُ بكلِّ أفعالِ عبادِهِ.

**نكتةُ توكيدِ ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾:**

لا تستوي طاعةُ الرَّسولِ وطاعةُ غيرِه

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾ بـ (أنَّ) وتقديمِ المُسندِ إليه على الخبرِ الفعليِّ، فلم يقل: (يعلم قيامك)؛ للتَّنبيهِ على خصوصيَّةِ قيامِه ﷺ، وأنَّه ليس كمِثْلِ قيامِه قيامُ أحدٍ مِن النَّاسِ عامَّةً، وقيامِ هذهِ الطَّائفةِ الَّتي معَه خاصَّةً، فقيامُه هو الأفضلُ والأعلى والأعظمُ والأحسنُ والأعجبُ، بالنِّسبةِ إلى قيامِ غيرِه؛ وذلكَ بقرينةِ ذِكْرِ هذهِ الطَّائفةِ الَّتي معَه في السِّياقِ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 394.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 29.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 280.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَقُومُ﴾:

المواظَبةُ على قيامِ اللَّيلِ مَجلَبَةٌ للثَّناءِ والرِّضا مِنَ اللهِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ القيامِ وتجدُّدِهِ وتكرارِه على الكيفيّاتِ المذكورةِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ مدحِ النَّبيِّ ﷺ ومَنْ معَهُ، والثَّناءِ عليهم بالمواظَبةِ على قيامِ اللَّيلِ، وإتعابِ النُّفوسِ في ذلكَ، حتَّى نالوا رِضاهُ ﷻ.

### علَّةُ التَّعبيرِ بالقيامِ:

التَّنبيهُ على كمالِ طاعةِ الرَّسولِ ومَن معَه بعظيمِ رغبتِهم في أدائها

عُبِّرَ بالقيامِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ لدلالتِهِ على العَزْمِ والانتِصابِ لصلاةِ اللَّيلِ، والمعنى: تقومُ في صلاةِ اللَّيلِ أدنى... إلخ[1]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى امتثالِهِ ﷺ ومَنْ معَهُ حقَّ الامتثالِ للأمرِ الواردِ في أوَّلِ السّورةِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وفي التعبيرِ بالقيامِ في اللَّيلِ كنايةٌ عن الصَّلاةِ فيه، فذكرَ المَلزومَ، وهو القيامُ، وأرادَ لازِمَهُ، وهي الصَّلاة، والغرضُ من الكناية بيانُ شدَّةِ الجُهدِ في صلاةِ اللَّيلِ؛ إذ يُفارِقُ المُصلّي الغرضَ من اللَّيلِ، وهو النّومُ والرّاحةُ من تعَبِ النَّهارِ، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ إطلاقُ القيامِ على الصَّلاةِ مجازًا مُرسَلًا من ذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ، وإنَّما تُجوِّزَ عن الصَّلاةِ بالقيامِ؛ لصُعوبتِهِ في اللَّيلِ أيضًا.

### علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَدْنَىٰ﴾:

في الدُّنوِّ إحسانٌ وحثٌّ لطيفٌ

أصلُ معنى قولِه: ﴿أَدْنَىٰ﴾: أقربُ، وهو اسمُ تفضيلٍ مِنَ الدُّنوِّ، استُعيرَ للأقلِّ؛ لأنَّ المسافةَ الَّتي بينَ الشَّيءِ والأدنى منهُ قليلةٌ[3]؛ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، فاعتُبِرَ التَّشبيهُ بينَ القربِ والقلَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مجازًا مرسَلًا؛ لأنَّ القُرْبَ يقتضي قلَّةَ الأحيازِ بينَ الشَّيئينِ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 52.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 29.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 643، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257.

فاستُعمِلَ في لازمِهِ أو في مطلقِ القلَّةِ[1]، وأيًّا ما كانَ؛ فهو منصوبٌ على الظَّرفيَّةِ لفعلِ ﴿تَقُومُ﴾، أي: تقومُ في زمانٍ يُقدَّرُ أقلَّ مِنْ ثلثي اللَّيلِ، وذلكَ ما يزيدُ على نصفِ اللَّيلِ، وهو ما اقتضاهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾[2]، وعلَّةُ التَّعبيرِ بالأدنى: العُدولُ عن معنى القلَّة الموهِمةِ للذَّمِّ إلى معنى الأدنى؛ لأنَّ كثرة العمل ممدوحة، وقلَّته بخلاف ذلك، والأدنى مشتركٌ بين (الأقرَبِ والأدوَنِ) للأنزلِ رُتبةً؛ لأنَّ كلًّا منهما يلزمُ منه قِلَّةُ المسافة، فلهذا كانت الاستعارةُ[3].

وفيه الإشارةُ إلى فضل اللّه وإحسانه إلى نبيِّه محمّد ﷺ بأنْ وفَّقَه لذلك القيام، وهيَّأه لهُ، فكانَ في مُكْنته وقُدْرته؛ بقرينةِ صدرِ الآيةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ إذ عُبِّر بلفظ الإحسانِ والإنعام: (الرَّبّ) مُضافًا إلى كافِ خطابِه ﷺ، وفيهِ أيضًا: أنَّ ما كلَّفَه به في أوَّلِ السُّورةِ هوَ الأعلى، ففيه حثٌّ لطيفٌ على القيامِ في المقام والمستوى الأعلى لقيامِ اللَّيل.

### معنى الإضافة وبلاغتها في ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾:

ما يزيدُ على نصفِ اللَّيلِ حالةٌ مِنْ حالاتِ قيامِ اللَّيلِ

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ على معنَى: (مِنْ)؛ لأنَّ ما هو أدْنَى مِنَ الثُّلثين - وهو ما يزيدُ على النِّصف - جزءٌ من أجزاءِ اللَّيلِ، ولو جيء بـ(مِن)؛ لأفْهَمَت احتمالَ كونِ الثُّلُثَيْنِ من غيرِ اللَّيلِ، وفي إضافةِ الثُّلثين للَّيل إشعارٌ بصُعوبةِ تلك الصَّلاةِ ومَشقَّتِها وما يتطلَّبُهُ مِن مُجاهدةٍ للنَّوم وسُلطانِه الكبير.

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

توزُّعُ الحالاتِ الثَّلاثِ على اللَّيالي

تعريفُ اللَّيلِ بـ(أل) في قولِهِ ﷻ: ﴿تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾؛ للجنسِ، والمعنى: تقومُ أدنى مِنْ ثلثي الجنسِ المسمَّى باللَّيلِ، ونصفَهُ، وثلثَهُ، والمرادُ أنَّهُ يقومُ أدنى مِنْ ثلثي اللَّيلِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 122.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.

في بعضِ اللَّيالي، ونصفَ اللَّيلِ في بعضِها الآخر، وثلثَ اللَّيلِ في بعضِها الآخرِ، بحيثُ تتوزَّعُ هذهِ الحالاتُ الثَّلاثُ على اللَّيالي.

**التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي قولِه: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾:**

تعدُّدُ أحوالِ قيامِ النَّبيِّ ﷺ

قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو وأبو جعفرٍ ويعقوبُ: ﴿وَنِصۡفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ﴾ بخفضِهما؛ عطفًا على ثلثي اللَّيلِ، أي: أدنى مِنْ نصفِه، وأدنى مِنْ ثلثِه، وقرأ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنَّصبِ[1]؛ على أنَّهما منصوبانِ على المفعولِ لـ﴿تَقُومُ﴾، أي: تقومُ ثلثي اللَّيلِ، وتقومُ نصفَ اللَّيلِ، وتقومُ ثلثَ اللَّيلِ، بحيثُ لا ينقصُ عن النِّصفِ وعن الثُّلثِ، والمعنى على هذه القراءةِ جارٍ على تعيينِ النِّصفِ والثُّلثِ الدَّاخلِ تحتَ الأدنى مِن الثُّلثَينِ[2].

وهذهِ - على القراءتَينِ - أحوالٌ مختلفةٌ في قيامِ النَّبيِّ ﷺ باللَّيلِ، تابعةٌ لاختلافِ أحوالِ اللَّيالي والأيّامِ في طولِ بعضِها، وقِصَرِ بعضٍ، وكلُّها داخلةٌ تحتَ التَّخييرِ الَّذي خيَّرَهُ اللهُ في قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، التَّخييرِ بين قيامِ النِّصفِ بتمامِه، أو النَّاقصِ منه، وهو الثُّلُثُ، أو الزَّائدِ عليه، وهو الثُّلُثانُ، أو الأقلِّ مِن الأقلِّ مِن النِّصفِ، وهوَ الرُّبُعُ، وبهِ تظهرُ مناسبةُ تعقيبِ هذهِ الجملةِ بجملةِ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، أي: قد علمَها اللهُ كلَّها، وأنبأهُ بها، فلا يختلفُ المقصودُ باختلافِ القراءاتِ[3].

**دلالةُ الواوِ في ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾:**

تعظيمُ قدرِ قيامِ الرَّسولِ؛ بكونه إمامًا لغيرِه

قولُه تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ في: ﴿تَقُومُ﴾، ونكتةُ العطفِ: ذِكْرُ قيامِ أتباعِ النَّبيِّ ﷺ بعدَ ذكرِ قيامِه، أي: وتقومُ ذلكَ القدرَ معكَ طائفةٌ مِن أصحابِكَ، وحسَّنَ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281.

هذا العطفَ الفَصْلُ بينَ المُتعاطفيْنِ بـ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[1]؛ دلالةً على انتفاءِ التَّساوي بين القيامَيْنِ، ويحتملُ أنْ يكونَ عطفًا على أصلِ اسمِ (أنَّ) بالرَّفعِ، فأصلُه الابتداءُ، وهو وجهٌ جائزٌ إذا كانَ بعدَ ذكرِ خبرِها؛ لأنَّهُ يُقدَّرُ رفعُهُ حينئذٍ على الاستئنافِ، وهو مِنَ اللَّطائفِ؛ إذا كانَ اتِّصافُ الاسمِ والمعطوفِ بالخبرِ مختلفًا، فإنَّ بينَ قيامِ النَّبيِّ ﷺ وقيامِ الطّائفةِ الَّتي معَهُ تفاوتًا في الحكمِ والمقدارِ، وهذا وجهُ العدولِ عن أنْ يقالَ: (إنَّ اللّهَ يعلمُ أنَّكم تقومونَ)، إلى قولِهِ: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾، ثمَّ قولِهِ: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾[2].

### سرُّ التَّنكيرِ في ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾:

تنكيرُ الطّائفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾؛ للإفرادِ، والمرادُ: وفردٌ مِن أفرادِ الطَّوائفِ، أي: الجماعاتِ، والمرادُ بها: أصحابُهُ ﷺ، يقومونَ مِنَ اللَّيلِ هذا المقدارَ المذكورَ[3]، وفيهِ أيضًا معنَى التَّعظيمِ، الَّذي يدعو إليهِ سياقُ المدحِ والثَّناءِ.

**الطّائفةُ القائمةُ فردٌ عظيمٌ مِن أفرادِ الطَّوائفِ**

### معنى ﴿مِّنَ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

يَحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِّنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ تبعيضيَّةً، فيدل الكلام على أنَّ مَن كانَ يقوم معه هو بعضُ أصحابِهِ، فتُضْفي ﴿مِّنَ﴾ معنَى الخُصوصيَّةِ والتَّميُّزِ وما جَرَى في هذا الطَّريقِ مِن المعنَى على تلكَ الطَّائفةِ، وهذا إبلاغٌ في الثَّناءِ عليهم، ويَحتملُ أنْ تكونَ بيانيَّةً، فتفيدَ أنَّ مَن كانَ يقومُ هو جميعَ صحابتِهِ ﷺ الَّذينَ كانوا في ذلكَ الوقتِ[4]، ففي ﴿مِّنَ﴾ على هذا تشويقٌ للعِلْمِ بِهِم؛ لأنَّ ما بعْدَها مُبيِّنٌ لِما قبلَها الَّذي فيه نوعُ إجمالٍ وإبهامٍ، وهذا مناسبٌ

**لـ(مِـن) هنا مـعـنـيـانِ مـخـتـلـفـانِ، يُؤدِّيانِ إلى ثناءِ السِّياقِ عليهم ومدحِهِم**

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 30، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 385.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281 - 282.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 124.

لسياقِ مدحهم والثَّناءِ عليهم؛ ترغيبًا في الاقتداءِ بهم، في السَّيْرِ على نهجِ النَّبيِّ محمّد ﷺ في الطَّاعة عمومًا، وفي قيامِ اللّيل خصوصًا.

### علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ والمعيَّةِ في ﴿ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾:

موافقةُ الطّائفةِ للنَّبيِّ في الأقوالِ والأفعالِ

جيءَ بالموصولِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾؛ لاستحضارِ الطّائفةِ بصفةِ المعيَّةِ الَّتي فيها تنبيهٌ على أنَّهم معَهُ ﷺ بأقوالِهم وأفعالِهم، أي: على الإسلامِ، وفيها دفعٌ لتوهُّمِ أنَّ الصّاحبَ ربَّما أُطلِقَ على مَنْ مع الإنسانِ بقولِهِ دونَ قلبِهِ، واختارَ القرآنُ: ﴿ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ دون (المسلمين)؛ لأنَّ ﴿مِّنَ﴾ على أنَّها تبعيضيَّةٌ تُفْهِم أنَّ طائفةً لم تقُم بهذا القيامِ، فإذا عُبِّر بـ (المسلمين)؛ أفْهَمَ الكلامُ أنَّ هذه الطّائفةَ الَّتي لم تقُمْ غير مسلمة، فعُبِّر بالمعيَّة؛ لأنَّها أعمُّ[1]، ونظمُ المعيَّةِ صلةَ موصولٍ يعني أنَّهم عُرِفوا، وشُهِروا بذلك الحالِ، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهُم، وثناءٍ عليهم، وهذهِ المعيَّةُ حقيقيَّةٌ، أي: للمصاحبةِ في عملٍ ممّا سيقَ لهُ الكلامُ، والمرادُ هنا: المصاحبونَ لكَ في قيامِ اللَّيلِ، على كونِ ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةً، ومجازيَّةٌ: وهي الانتسابُ والصُّحْبةُ والموافقةُ، على كونِ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّةً.

### معنى الواو ودلالتها في ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾:

علمُ اللهِ بما لا يعلمُهُ عبادُهُ

(الواوُ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾: حاليَّةٌ؛ وذلكَ أنَّهُ لمّا كانَ القيامُ - على هذا التَّفاوتِ مع الاجتهادِ في السَّبقِ للعبادةِ - دالًّا على عدمِ العلمِ بالمقاديرِ على ما هي عليهِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، أي: تقومونَ هكذا؛ لعدمِ علمِكم بمقاديرِ السّاعاتِ على التَّحريرِ، والحالُ أنَّ اللهَ يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ[2]، ففي هذه الحالِ نوعُ توكيدٍ لِما قبلَها، ويحتملُ أنْ تكونَ (الواوُ) اعتراضيَّةً، والجملةُ معترضةٌ بينَ جملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، وجملةِ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 30 - 31.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31.

تُحْصُوهُ﴾، ومناسبةُ اعتراضِها: أنَّهُ بعدَ ذكرِ الأحوالِ المختلفةِ لقيامِ النَّبيِّ ﷺ، التّابعةِ لاختلافِ أحوالِ اللَّيالي والأيّامِ في طولِ بعضِها وقِصَرِ بعضِها؛ عُقِّبَتْ بهذهِ الجملةِ؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ تعالى قد علمَها كلَّها، وأنبأَهُ بها[1]، فهذه الجملةُ على كلِّ حالٍ مِن تمامِ ما قبلها، فقد وقعت الموقعَ البليغَ السَّديدَ.

### علَّةُ الإظهارِ والتَّعبيرِ باسم الجلالةِ في ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾:

مقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (وهو يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ لفظِ الرَّبِّ، وإنَّما عُدِلَ إلى الإظهارِ والتَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي منها القدرةُ والعلمُ، الَّتي هي ألصقُ بالمعنى المسندِ إلى اسمِ الجلالةِ: ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، والمعنى: والمَلِكُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ[2]، وحسَّنَ الإظهارَ كونُ المُظْهَرِ غيرَ المُظْهَرِ السَّابقِ ذِكْرُه.

**علمُ مقاديرِ اللَّيلِ والنَّهارِ هيِّنٌ على ذي العظمةِ والجلالِ**

### نكتةُ التَّقديمِ في ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾:

تقديمُ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، والمعنى: لا يعلمُ مقاديرَ ساعاتِهما كما هي إلّا اللّهُ تعالى، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، أي: لن تُحصوا تقديرَ الأوقاتِ، ولن تستطيعوا ضبطَ السّاعاتِ[3].

**علمُ مقاديرِ الأوقاتِ للهِ وحدَهُ**

### علَّةُ التَّعبيرِ بالتَّقديرِ:

عُبِّرَ بالتَّقديرِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لدلالتِهِ على الضَّبطِ والإحاطةِ الدَّقيقةِ، أي: يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ

**علمُ اللهِ تعالى باللَّيلِ والنَّهارِ عِلْمًا تفصيليًّا دقيقًا**

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281 - 282.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 395.

تقديرًا عظيمًا، هو في غايةِ التَّحريرِ، فيعلمُ كلَّ دقيقةٍ منهما على ما هي عليهِ؛ لأنَّهُ خالقُهما، ولا يوجَدُ شيءٌ منهما إلّا بهِ[1].

### نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يُقَدِّرُ﴾:

إحاطةُ علمِ اللهِ تعالى بكلِّ شيءٍ على الدَّوامِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على استمرارِ التَّقديرِ وتجدُّدِهِ وتكرارِه باستمرارِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وذلكَ أبلغُ في الدِّلالةِ على شمولِ علمِهِ تعالى وإحاطتِهِ بكلِّ شيءٍ على الدَّوامِ، وهذا التَّجدُّدُ يلحظُ أجزاءَ الزَّمانِ، وتجدُّدَ القيامِ فيها، في قوله تعالى: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾؛ وفي أوَّلِ السُّورة: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

### دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾:

كـلُّ اللَّـيـالي والأيّـامِ تحتَ سلطانِ علمِهِ تعالى

تعريفُ اللَّيلِ والنَّهارِ بـ(أل)، في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ للجنسِ المستغرقِ لأفرادِهِ؛ إذ لا يخفى عليهِ تعالى شيءٌ ممّا يتعلَّقُ بكلِّ ليلٍ وكلِّ نهارٍ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى من إبرازِ كمالِ عظمتِهِ تعالى، وفي هذا تحقيقٌ وتوكيدٌ لمضمونِ الكلامِ.

### سِرُّ ذِكْرِ النَّهارِ في سياقٍ ليليٍّ:

ارتباطُ مقاديرِ اللَّيلِ بمقاديرِ النَّهارِ

التَّعرُّضُ للنَّهارِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ على خلافِ الظَّاهرِ؛ لأنَّ الكلامَ في اللَّيلِ؛ لتتميمِ المقصودِ؛ لأنَّ معرفةَ مقاديرِ اللَّيلِ إنَّما هو بمعرفةِ مقاديرِ النَّهارِ، وبالعكسِ؛ وذلكَ بالنِّسبةِ إلى العبادِ[2]، ولأنَّ للنَّهارِ داعيًا في سياقِ الآيةِ، من قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾.

### سِرُّ التَّرتيبِ في ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾:

مُناسبةُ اللَّيلِ للقيامِ داعيةٌ إلى تقديمِ الاهتمامِ

قُدِّمَ اللَّيلُ على النَّهارِ في قولِهِ جلَّ من قائلٍ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396.

وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ بالمُقدَّمِ؛ لأنَّ الكَلامَ فيهِ، ولأنَّهُ مقدَّمٌ في الوجودِ[1].

**بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾:**

الأضـدادُ كلُّها خـاضـعـةٌ لسلطانِ اللهِ

في الجمعِ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ في قولِهِ تقدَّسَت آلاؤُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾: رعايةُ مُحسِّنٍ معنويٍّ، هو الطِّباقُ، فيرى السّامعُ صورةَ شيئينِ متقابلينِ في الوجودِ باستمرارٍ، كلٌّ منهما تحتَ سلطانِ علمِ اللهِ تعالى وتقديرِهِ، وفي ذلكَ مِنَ تصويرِ العظمةِ والكبرياءِ ما لا تحيطُ بهِ العبارةُ.

**علَّةُ فصلِ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾:**

التَّخفيفُ عمَّنْ يواظبُ على قيامِ اللَّيلِ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها إمّا خبرٌ ثانٍ عن ﴿إِنَّ﴾ بعدَ الخبرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾، وإمّا استئنافٌ بيانيٌّ لِما ينشأُ عن جملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، مِنْ ترقُّبِ السّامعِ لمعرفةِ ما مُهِّدَ لهُ بتلكَ الجملةِ، فبعدَ أنْ شكرَهم على عملِهم خفَّفَ عنهم منهُ[2]، وهذا وجهٌ أقوى مِن الوجهِ السَّابقِ، ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ الفَصْلُ؛ لِما بينَ هذهِ الجملةِ وجملةِ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، مِن كمالِ الاتِّصالِ؛ لكونَ الثَّاني لازمًا للأوَّلِ، فهو مُؤكِّدٌ ومُحقِّقٌ له.

**نكتةُ التَّعبيرِ بالمُضي في ﴿عَلِمَ﴾ ودلالته:**

عدمُ إحصائِهم غيرُ متعدِّدٍ

اختيرَ الماضي في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، بعدَ اختيارِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الماضيَ والمستقبلَ مُنسلِخانِ عن الماضويَّةِ والاستقباليَّةِ، وأيضًا القيامُ متعدِّدٌ، فيناسبُهُ المضارعُ الدّالُّ على الاستمرارِ، بخلافِ عدمِ الإحصاءِ فيُناسِبُهُ الماضي[3].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396.

### معنى ﴿أَن﴾ في ﴿أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾:

عدمُ إحصائِهم واقعٌ

﴿أَن﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ مخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ[1]، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ، وخبرُهُ الجملةُ، وقد وقعَ الفصلُ بينَ: ﴿أَن﴾ وخبرِها بحرفِ النَّفيِ؛ لكونِ الخبرِ فعلًا غيرَ دعاءٍ، ولا جامدٍ، و﴿أَن﴾ وجملتُها سادَّةٌ مسدَّ مفعولَي: ﴿عَلِمَ﴾، والتَّقديرُ: علمَ عدمَ إحصائِكم إيّاهُ واقعًا[2]، والغرضُ منها التوكيدُ؛ لإثباتِ كمالِ علمِهِ بعدمِ إحصاءِ فضلِهِ عليهم، وتناهي قُدرتِهم على الإيفاءِ بذلك الفضلِ وتلك النِّعَم.

### تعيينُ المخاطَبِ في ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾:

تعذُّرُ الإحصاءِ متعلِّقٌ بالصَّحابةِ ﷺ

الظّاهرُ أنَّ الخطابَ في قولِهِ: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾، وما بعدَهُ موجَّهٌ إلى المسلمينَ الَّذينَ كانوا يقومونَ اللَّيلَ، إمّا على طريقةِ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ بعدَ قولِهِ: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، وإمّا على طريقةِ العامِّ المرادِ بِهِ الخصوصُ، بقرينةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يُظَنُّ تعذُّرُ الإحصاءِ عليهِ، وبقرينةِ قولِهِ: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ الآية[3].

### مرجعُ الضَّميرِ في ﴿تُحْصُوهُ﴾:

في تَعَدُّدِ مَرْجِعِ الضَّميرِ لفْتٌ إلى معنَى جملةِ النَّفْيِ، فتمكينٌ له في النَّفْسِ

الضَّميرُ المنصوبُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾: عائدٌ إلى مصدرٍ مقدَّرٍ، أي: علمَ أنَّهُ لا يُمكنُكم إحصاءُ مقدارِ كلِّ واحدٍ مِن أجزاءِ اللَّيلِ والنَّهارِ على الحقيقةِ، ولا يُمكنُكم أيضًا تحصيلُ تلكَ المقاديرِ على سبيلِ الطَّعنِ والاحتياطِ إلّا مع المشقَّةِ التّامَّةِ[4]، ويَحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى القيامِ المستفادِ مِن: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾[5]، أو إلى التَّقديرِ المستفادِ مِن: ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: تُطيقوا التَّقديرَ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 53.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.

علمًا وعملًا[1]، وهذا هو الظَّاهرُ، ومآلُ الأوجه الثّلاثةِ عند التَّأمُّل واحدٌ، ولا يبعُدُ أنْ يكون الضّمير راجِعًا إلى الربِّ بتقدير مضافٍ محذوفٍ، تقديرهُ (فضلُه ونِعَمه وكرمُه) التي أجلُّها الهدايةُ إلى قيامِ اللَّيل.

### معنى الفاء ودلالة التَّعبير بها في ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾:

علمُ اللهِ بحالِ عبادِهِ سبَّبَ التَّخفيفَ عنهم

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ للتَّفريعِ، فتفيدُ أنَّهُ تسبَّبَ عن هذا العلمِ أنَّهُ ﷻ خفَّفَ عنهم[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ تعالى رحيمٌ بعبادِهِ، فلمّا علمَ وقوعَ المشقَّةِ على عبادِهِ؛ منَّ عليهم بالتَّخفيفِ.

### دلالة المُضِيِّ في ﴿فَتَابَ﴾:

توبةُ اللهِ تعالى عنهم متحقِّقةٌ

جيء بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ توبةَ اللّهِ تعالى عليهم أمرٌ قد مضَى، وتحقَّقَ، وذلكَ أعظمُ في الامتنانِ والتَّنصيصِ على رحمةِ الباري ﷻ، وحسَّنَ المضيَّ مُشاكلتُه نَظْمَ العِلْمِ المُفرَّع عنهُ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾.

### علَّة التَّعبيرِ بالتَّوبةِ:

تركُ القيامِ المقدَّرِ مُقتضٍ للتّوبة؛ رحمةً منه تعالى ولطفًا

التَّوبةُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عبارةٌ عن التَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقدَّرِ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، والمعنى: أنَّهُ رفعَ التَّبِعةَ عنكم في تركِ هذا العملِ، كما رفعَ التَّبِعةَ عن التّائبِ[3]، فيكون الفعل (تابَ) مستعارًا لعدمِ المُؤاخَذةِ قبلَ حصولِ التَّقصيرِ؛ لأنَّ التَّقصيرَ متوقَّعٌ، فشابهَ الحاصلَ، فعُبِّرَ عن عدمِ التَّكليفِ بما يُتوقَّعُ التَّقصيرُ فيهِ، أي: بالفعلِ (تابَ) المفيدِ رفعَ المؤاخذةِ بالذَّنبِ بعدَ حصولِهِ، وكأنَّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257.

سمَّاهُ توبةً - وإنْ لم يكن ثَمَّ معصيةٌ - إشارةً إلى أنَّه مِن شأنِه لثقلِه أنْ يَجُرَّ إلى المعصيةِ[1].

### معنى: (على)، ودلالتُها في ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

الإبـلاغُ في عَـدَمِ مُؤاخَذةِ اللهِ لمَنْ يتركُ القيامَ

الفعلُ (تابَ) إذا أُريدَ بهِ قَبولُ توبةِ التّائبِ؛ عُدّيَ بالحرفِ (على)؛ لتضمينِهِ معنى (مِنْ)، وإذا كانَ بمعنى الرُّجوعِ عن الذَّنبِ والنَّدمِ عليهِ؛ عُدّيَ بما يناسبُ[2]، وتعديتُهُ بـ(على) في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ لأنَّ السّياقَ لعدمِ المؤاخذةِ، وفيه أيضًا إشعارٌ بإحاطةِ التَّوبةِ بكُلِّيَّاتِهم؛ إبلاغًا في تصويرِ رحمةِ اللهِ بهم، وبتوفُّرِ التَّرخيصِ المُشبَّهِ بها لهُم بقوَّةٍ؛ وذلك من طريق أنَّ (على) للاستعلاء، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ، يفيدُ ما ذكرنا.

### معنى (الفاءِ) ودلالتها في ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾:

العُسْرُ عند الله مجلَبةٌ لليُسرِ

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾؛ للسَّببيَّةِ، وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا رفعَ الحرجَ عنهم؛ سبَّبَ عنهُ أمرَهم بما يُسهِّلُ عليهم[3]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على سَعَةِ رحمةِ اللهِ تعالى؛ بجعلِ العُسْرِ سببًا لليُسْرِ، والشِّدَّة بابًا للفرجِ.

### عِلَّة التَّعبيرِ بالقراءةِ:

القراءةُ مجازٌ عن الصَّلاة أو كنايةٌ عنها

في تحديد المرادِ بالقراءةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قولانِ، **الأوَّلُ**: أنَّ المرادَ مِن هذهِ القراءةِ: الصَّلاةُ؛ لأنَّ القراءةَ أحدُ أجزاءِ الصَّلاةِ، فأُطلِقَ اسمُ الجزءِ على الكلِّ؛ مجازًا مرسلًا، علاقته الجزئيَّة، أي: فصلّوا ما تيسَّرَ عليكم، ثمَّ يتفرّع قولانِ: أحدهما: المرادُ صلاةُ المغربِ والعشاءِ، والآخَرُ: نسخُ وجوبِ ذلكَ التَّهجُّدِ، واكتُفيَ بما تيسَّرَ منهُ، ثمَّ نُسِخَ ذلكَ أيضًا

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 268، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 284.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 32.

بالصَّلواتِ الخمسِ، وإنَّما عُبِّرَ عن الصَّلاة بالقراءةِ؛ لأنَّها أعظمُ أركانها؛ إشارةً إلى أنَّ التَّهجُّدَ مُستَحَبٌّ، لا واجِبٌ[1]، ويَحتملُ أنْ يكونَ إطلاقُ القراءةِ على الصَّلاةِ مِن قبيلِ الكنايةِ، وفي الكنايةِ عن الصَّلاةِ بقراءة القرآنِ جمعٌ بينَ التَّرغيبِ في القيامِ والتَّرغيبِ في تلاوةِ القرآنِ فيهِ بطريقةِ الإيجازِ، والمرادُ القرآنُ الَّذي كانَ نزلَ قبلَ هذهِ الآيةِ المدنيَّةِ، وهو شيءٌ كثيرٌ مِن القرآنِ المكِّيِّ كلِّه، وشيءٌ مِن المدنيِّ[2]. **والقولُ الثّاني**: المرادُ قراءةُ القرآنِ بعينِها، أي: اقرَؤوا في الصَّلاة وغيرِها في اللّيلِ والنّهارِ، والغرضُ دراسةُ القرآنِ؛ ليحصلَ الأمنُ مِنَ النِّسيانِ[3].

### دلالةُ الأمرِ في ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾:

ضَـرورةُ القراءةِ والـصَّـلاةِ، ففي ذلـك كـلُّ فـلاحٍ لهُم

إنْ كانَ المرادُ بالقراءةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾: قراءةَ القرآنِ في الصَّلاةِ؛ فالأمرُ للوجوبِ على اختلافٍ في القدرِ الواجبِ قراءتُهُ، وللنَّدبِ في غيرِها[4]، وإنْ كانَ المرادُ بالقراءةِ الصَّلاةَ؛ فالمرادُ وجوبُ قيامِ مقدارٍ ما مِنَ اللَّيلِ، وهو نسخٌ لقولِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٢ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، ثمَّ نُسِخَ وجوبُ القيامِ على الأمَّةِ مطلقًا بالصَّلواتِ الخمسِ[5]، وإبرازُ الوجوبِ بصيغةِ الأمرِ تنبيهٌ على عِظَمِ الإقبالِ على الصَّلاةِ أو القراءةِ، وأنَّ ذلك أمرٌ مرغوبٌ فيهِ بقوَّةٍ.

### علَّة التَّعبير بالموصولِ:

كـلُّ مـا تيسَّـرَ قـراءتُـهُ فهو مطلوبٌ

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، وقولِهِ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾؛ للعمومِ، أي: فاقرؤوا كلَّ ما تيسَّرَ لكم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، وأبو السعود: 9/ 53.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283 - 284.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، وأبو السعود: 9/ 53.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 57 - 58.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 123 - 124.

مِنَ القرآنِ، والعمومُ يزدادُ بمدَّ الألفِ في ﴿مَا﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ القرآنَ مائدةُ اللهِ، الَّتي يتنافَسُ فيها عبادُه مِن أهلِ الإيمانِ.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالمُضي في ﴿تَيَسَّرَ﴾:

تيسيرُ اللهِ عليهم متحقِّقٌ؛ امتنانًا عظيمًا

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾، وقولِهِ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾؛ للمبالغةِ في التَّخفيفِ ورفعِ الحرجِ؛ ببيانِ أنَّ ما يُطلَبُ منهم قراءتُهُ هو أمرٌ هيِّنٌ عليهم، قد تحقَّقَ كونُهُ يسيرًا، وفي ذلك حثٌّ على القراءةِ، وترغيبٌ فيها.

### علَّةُ التَّعبيرِ بالتَّيسُّرِ:

المؤمنُ يأخذُ ما سَهُلَ وهانَ بترخيصِ اللهِ لهُ

عُبِّرَ بالتَّيسيرِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾، وقولِهِ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾؛ لدلالتِهِ على غايةِ السُّهولةِ واللِّينِ؛ لأنَّه يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّتِه، أي: ما سَهُلَ، وهانَ إلى الغايةِ عليكم، ولانَ، وانقادَ لكم[1]، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ القرآنَ وقراءتَه مِن شأنِه أنْ يشرحَ صدورَهُم، ويُحقِّقَ لهُم البهجةَ، شأنُ النَّفسِ معَ كلِّ شيءٍ تُعالجُه، وقد يسَّرَه اللهُ لها؛ وإذا كانَ القرآنُ ميسورًا؛ كانت قراءته كذلك، ففي اليُسْرِ عظيمُ ترغيبٍ في تلك القراءةِ.

### معنى حرف الجرِّ ودلالته:

البيانُ بعدَ الإبهامِ يُقرِّرُ المعاني في النُّفوسِ

﴿مِنَ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾، وقولِهِ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾: بيانيَّةٌ، وفائدتُها إزالةُ ما في ﴿مَا﴾ مِنَ الإبهامِ، وفي البيانِ بعدَ الإبهامِ ما لا يخفَى مِن تشويقِ السّامعِ لوُرودِ البيانِ، فيتقرَّرُ في النَّفسِ عندَ وُرودِهِ عليها، ففيها إحسانٌ إلى المعنَى ولمُتلقِّيهِ جميعًا.

### سِرُّ فصلِ ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ لأنَّهُ كلامٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 32.

ابتدائيٌّ مَسوقٌ؛ لبيانِ حكمةٍ أخرى مقتضيةٍ للتَّرخيصِ والتَّخفيفِ[1]، والحكمةُ الأولى للمقيمينَ والأصِحّاءِ، وهذهِ الحكمةُ للمرضى والمسافرينَ، أو الأولى تعمُّ الجميعَ، والحكمةُ الثّانيةُ مخصوصةٌ بهؤلاءِ[2]؛ لإفادةِ العنايةِ بشأنِهم؛ لِما هم عليهِ مِنَ الأعذارِ، ويَحتملُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا على تقديرِ السُّؤالِ عن وجهِ النَّسخِ[3]، ويَحتملُ أنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ مِنْ جملةِ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[4].

بيانُ حكمةِ التَّخفيفِ والتَّيسيرِ في قيامِ اللَّيلِ

### دلالة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿عَلِمَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ علمَ اللّهِ تعالى بأعذارِهم المذكورةِ قد مضَى، وتحقَّقَ، فخفَّفَ اللّهُ تعالى عنهم، وفي ذلكَ مزيدُ بثٍّ للطُّمأنينةِ في نفوسِهم، وتنبيهٌ لهم على أنَّ لطفَ اللّهِ تعالى بهم سابقٌ، وعلى كمالِ إحاطةِ علمِه سبحانه بأحوالِ عبادِه.

لطفُ اللهِ تعالى بأصحابِ الأعذارِ سابقٌ

### معنى ﴿أَن﴾ والسّينِ في ﴿أَن سَيَكُونُ﴾:

﴿أَن﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾: مخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، أي: علمَ أنَّهُ سيكونُ، والسّينُ عِوَضٌ عن المحذوفِ[5]، وفائدتُها الدِّلالةُ على الاستقبالِ والتَّوكيدِ، أي: سيكونُ في المستقبلِ كذا وكذا دونَ شكٍّ[6].

الأصنافُ المذكورةُ ستوجَدُ في المستقبلِ

### دلالةُ المضارعة في ﴿سَيَكُونُ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ هذهِ الأعذارَ ستكونُ في المستقبلِ؛ بدلالةِ حرفِ الاستقبالِ، وفي ذلكَ إعجازٌ بالإخبارِ بالغيبِ؛ لأنَّ ذلكَ قد كانَ

تحقُّقُ ما أخبرَ اللّهُ تعالى بوقوعِهِ مِنَ الأعذارِ دليلٌ على الألوهيَّةِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 53.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 397.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 644.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 284.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 391، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 560.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

فيما بعدُ، وأيضًا هذهِ السّورةُ مِن أوائلِ ما أُنزِلَ عليهِ ﷺ، ففي هذهِ بِشارةٌ بأنَّ أهلَ الإسلامِ يَكثُرونَ جدًّا[1].

### معنى حرف الجرِّ ودلالته في ﴿مِنكُم﴾:

لطفُ اللهِ تعالى بهم بعدمِ تعميمِ الأعذارِ

(مِنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ للتَّبعيضِ، وهو يناسبُ سياقَ تَعْدادِ الأعذارِ، والمعنى: سيكونُ بعضُهم مرضى، وآخَرونَ يَضْرِبونَ في الأرضِ ... إلخ، ففيهِ إيماءٌ إلى لطفِ اللهِ تعالى بعبادِه؛ إذ لم يجعلْ هذهِ الأعذارَ شاملةً لجميعِهم، ووراء ذلكَ في نورِ كون هذه السُّورةِ مِن أوَّلِ ما نزَل عليه ﷺ، معَ ضميمة جمع الكثرة: ﴿مَّرْضَىٰ﴾، بشارةٌ بأنَّ أهل الإسلامِ يَكْثُرونَ جِدًّا[2].

### نكتة التَّقديم في ﴿مِنكُم﴾:

الاعتناءُ بشأنِ المصلّين؛ لأنَّهم أعرفُ بربِّ العالَمين

قُدِّمَ قولُه: ﴿مِنكُم﴾ على قولِه: ﴿مَّرْضَىٰ﴾، في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ للعنايةِ بكونِ الأعذارِ واقعةً فيهم، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ عليهم، وإظهارِ رحمته بهم.

### غرضُ تنكيرِ ﴿مَّرْضَىٰ﴾:

مِن أهلِ الأعذارِ مَن هو مندرجٌ في جملةِ المرضى

تنكيرُ ﴿مَّرْضَىٰ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ للإفرادِ، أي: سيكونُ منكم أفرادٌ مِن جملةِ أفرادِ المرضى، وإبهامُهُم يتناغَى مع كثرتهم؛ لأنَّ ﴿مَّرْضَىٰ﴾ جمعُ كثرةٍ، فمَن سيكون كذلك غير مُعيَّنٍ ولا مُحدَّدٍ، فالتَّنكيرُ تمكينٌ للكثرة في هذه الصِّيغَةِ.

### سِرُّ الوصل ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ﴾:

الوصلُ بالواو في اللَّفظ صورة الوصل في المعنى

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، على قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ بالواو؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، فكلاهما خبرٌ في اللّفظ والمعنى، والمُغايرةُ بينهما في النَّظْمِ، اسميَّةً وفعليَّةً تنبيهٌ على اختلافِ الحالَيْنِ، ويجوزُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.

أنْ يكونَ قولُه: (آخرون) معطوفًا على قولِه: ﴿مَّرۡضَىٰ﴾، أي: وعلم أنْ سيكونُ منكم آخرون يضربون ...، فهو من عطف مفردٍ على مفردٍ، والواوُ فيها تقتضي المغايرةَ، فتفيد اختلاف حال ما قبلها وحالِ ما بعدها، وهو كذلك في الحقيقة.

**دلالة عطفِ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:**

ذِكـــرُ الـعُـذرِ الأخصِّ بعدَ ذكرِ العُذرِ الأعمِّ

لمّا ذكرَ ﷻ عُذرَ المريضِ، وبدأ بهِ؛ لكونِهِ أعمَّ، ولا قدرةَ للمريضِ على دفعِهِ؛ أتبعَهُ السَّفرَ للتِّجارة في قولِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّهُ يليهِ في العمومِ، ولَمَّا كان في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ بشارةٌ بكثرة أهل الإسلام؛ بشَّرَ سبحانه في هذه الجملة باتِّساعِ الأرضِ لهُم[1].

**علَّة التَّعبيرِ بالضَّربِ في الأرضِ:**

طـالـبُ الـعـلـمِ والتِّجارةِ يسعَى في الأرضِ

حقيقةُ الضَّربِ: قرعُ جسمٍ بجسمٍ آخرَ، وسُمّيَ السَّيرُ في الأرضِ ضربًا في الأرضِ؛ لأنَّ السَّيرَ ضربٌ للأرضِ بالرِّجلين، لكنَّهُ تُنوسيَ منهُ معنى الضَّربِ، وأُريدَ المشيُ[2]، والمرادُ هنا: السَّفرُ للتِّجارةِ وطلبِ العلمِ ونحوِ ذلكَ، وإنّما عُبِّر بالضَّرْب؛ إشارةً إلى صفة هؤلاء الضَّاربينَ في الأرضِ مِن الجدِّ والاجتهادِ؛ لأنَّ الماشيَ بجدٍّ واجتهادٍ يضربُ الأرضَ برجليهِ[3]، ففي النّظم استعارةٌ تصريحيَّةٌ بتشبيهِ السَّير بالضَّرب بجامعِ المشقَّة والتّعَب، والغرضُ بيانُ الصّعوبةِ والتعبِ الَّذي يُلازمُ الضّربَ على الشّيءِ مع ما فيهِ من جدٍّ واجتهادٍ للوصولِ إلى المقصود من السَّير.

**دلالة المضارعة في ﴿يَضۡرِبُونَ﴾:**

تـطـويـفُ طـلابِ العلمِ والتِّجارةِ في الآفاقِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّنبيهِ على استمرارِ الضَّربِ وتكرارِه وتجدُّدِهِ، وذلكَ شأنُ مَن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 217.

يطلبُ العلمَ أو التِّجارةَ ونحوَ ذلكَ، فهو يُطوِّفُ في البلادِ والآفاقِ؛ ابتغاءَ تحقيقِ طلبتِه، ففي المضارعةِ دليلٌ على جدِّيَّتِه واجتهادِه وسعْيِه الدَّؤوبِ.

### معنى حرفِ الجرِّ ودلالته في ﴿يَضۡرِبُونَ﴾:

الأرضُ محلُّ السَّيرِ والسَّفرِ

الفعلُ ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ مُضمَّنٌ معنى: (يسيرونَ)، أو (يسافرونَ)؛ ولذلكَ عُدّيَ بالحرفِ ﴿فِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، و﴿فِي﴾ معناها الظَّرفيّة، وهي هنا حقيقيَّةٌ، فيكون في الحرفِ تنبيهٌ على أنَّ الأرضَ هي محلُّ سَيْرِهم وسفرِهم، وأرضُ اللهِ واسعةٌ، فيتْبَع ذلكَ مِن المعنَى سعةُ ضربهم في تلك الأرضِ، فكان الحرفُ: ﴿فِي﴾ يُنتِج دلالةَ المضارعةِ في: ﴿يَضۡرِبُونَ﴾، فيكون مؤكِّدًا لها، ويُمهِّدُ لنظيرتها في الفعل: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، بقي أنَّ الحرف ﴿فِي﴾ يشيرُ إلى أنَّ مِن شدَّةِ سَيرهم على الأرض كأنَّهم يَسيرونَ فيها، ويحتمِلُ أنْ يكونَ الحرفُ ﴿فِي﴾ مُستعارًا؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ بجامعِ أنَّ مَن كان على الشَّيء؛ فهو فيه على سبيلِ المُبالغة.

### نكتةُ التَّعريفِ في ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

كثرةُ أهلِ الإسلامِ، واتِّساعُ الأرضِ لهم

تعريفُ الأرضِ بـ(أل) في قولِه ﷻ: ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ إذ المرادُ الأرضُ المعهودةُ الَّتي نعيشُ عليها، ونسيرُ فيها، ونتقلَّبُ في طلبِ الحاجاتِ فيها، ووراء ذلك مِن المعنَى - مع ضميمة كون الَّذين يضربون في الأرض جماعةً - بشارةٌ بكثرةِ أهلِ الإسلامِ، واتِّساعِ الأرضِ لهم[2].

### دلالة المضارعة في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾:

المؤمنونَ يطمعونَ في فضلِ اللهِ على الدَّوامِ

عُبِّرَ بالمضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ ابتغاءَ الفضلِ مستمرٌّ مُتكرِّر متجدِّدٌ، فهُم دائمًا يطمعونَ في

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 397، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 286.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

فضلِ اللهِ وكرمِه، وهذا ناظِرٌ إلى الضَّرْب في الأرضِ المتجدِّدِ أيضًا: ﴿يَضْرِبُونَ﴾، فكأنَّ الضَّرْبَ في الأرض مُؤسَّسٌ على الابتغاءِ مِن فضل اللهِ، ومُصاحبٌ وثمرةٌ له، يتجدَّدُ بتجدُّدِه؛ لأنَّ الابتغاءَ علَّتُه، بقي أنَّ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ في محلِّ النصبِ حالٌ من فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم في سَعيِهم وسَيرهم يَنشُدونَ فضلَ اللهِ عليهم.

**علَّة التَّعبيرِ بالابتغاءِ:**

المؤمنونَ يطلبونَ فضلَ اللهِ طلبًا عظيمًا

عُبِّرَ بالابتغاءِ في قولِه ﷻ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالتِه على الطَّلبِ العظيم، ويدخلُ في ذلكَ طلبُ الرِّزقِ بالتِّجارة[1]، وطلبُ العلم، ونحوُ ذلكَ، وفضلُ اللهِ تعالى واسعٌ، وخزائنُهُ ملأى، وهذه المادَّةُ مُؤسَّسةٌ على مادَّة الضَّرْبِ في قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ مَن يضربُ في الأرضِ، فيمشي بجِدٍّ واجتهادٍ مِن شأنِه أنْ يكونَ طالبًا لفضلِ اللهِ تعالى بقوَّةِ رغبةٍ، وشِدَّةِ عزيمةٍ.

**دلالة صيغةِ الافتعالِ ﴿يَبْتَغُونَ﴾:**

الافتعال إبلاغٌ فوق الإبلاغِ الَّذي في معنَى اللَّفظ

جيءَ بالافتعالِ في قولِ الحقِّ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ عظمِ الطَّلبِ، وحرصِهم عليه، والمعنى: يطلبونَ طلبًا شديدًا[2]، ولا غَرْوَ في ذلكَ، فسَعَةُ فضلِ اللهِ تعالى تُغري المؤمنَ بالاستزادةِ منهُ على الدَّوام.

**معنى حرف الجرِّ ودلالة التَّعبير به ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾:**

ما عند الله لا ينفد، وهو فوقَ التَّصوُّرِ

كلمة ﴿مِن﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّبعيضِ، أي: يبتغونَ بعضَ ما أوجدَهُ اللهُ تعالى لعبادِه؛ إذ فضلُ اللهِ تعالى واسعٌ، وكلُّ مطالبِ الخلقِ - وإنْ كَثُرَتْ - لا تنقصُ مِنْ مُلكِه تعالى شيئًا، فإنَّ ما عندَ الله فوقَ أماني العبادِ كلِّ العبادِ بكثيرٍ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 286.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

### علَّة التَّعبيرِ بالفضلِ:

اللهُ يُعطي المؤمنينَ فوقَ ما يرجونَ

جيءَ بالفضلِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدِّلالةِ على سَعَةِ ما عندَ اللهِ؛ بكونِهِ فوقَ أمانيهم[1]، فاللهُ تعالى كريمٌ، يُعطي العبدَ مُناهُ، ويُعطيهِ فوقَ ما يرجوهُ، ويأمُلُهُ، فالتَّعبيرُ بالفضلِ يعودُ على الضَّرب في الأرض والابتغاءِ معنًى ومضارعةً بالتَّحقيقِ والتّوكيدِ، بقي أنَّ تسميةَ الرّبح فضلٌ مجازٌ مُرسَلٌ لعلاقةِ المُسبببَّة؛ فيدلُّ على أنَّ الضّرب في الأرض مجرَّدُ سببٍ ناقصٍ لا تامٍّ لتحصيلِ الرِّبح؛ إذ لولا الأمنُ وتيسيرُ الوُصول ومنحُ الطّاقة؛ لما تمكَّنَ الضاربُ في الأرضِ منَ الرِّبح المَقصود.

### بلاغة الإضافةِ في ﴿فَضْلِ ٱللَّهِ﴾:

الفضلُ بخلقِ اللهِ وإنعامِهِ

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ لاميَّةٌ، أي: مِنْ فضلٍ للهِ؛ وذلكَ باعتبارِ أنَّ اللهَ تعالى موجدُ هذا الفضلِ وواهبُهُ، ولَمَّا كانَ ذلك ممَّا لا جدالَ فيه عندَ العقلاءِ المُنْصِفينَ، وكان أهلُ الكفرِ يُقِرُّون بخلْقِ اللهِ السّماوات والأرض؛ لم يحتج القرآنُ إلى التَّصريحِ باللّام، فلَم يقل: (من فضل لله)، بل نظَم المعنى على الإضافة، وفي الإضافةِ أيضًا إرشادٌ للطّامحين في تحصيلِ الرِّبح إلى الاعتقادِ بأنَّهُ فضلٌ وعطاءٌ إلهيٌّ، ولولاهُ؛ لما تمكَّنَ الضّاربُ في الأرض من تحصيلِ أيِّ ربحٍ بمُجرَّدِ سَعيِهِ وسَيرِهِ.

### علَّةُ التَّعبيرِ باسم الجلالةِ في ﴿فَضْلِ ٱللَّهِ﴾:

اللهُ خالقُ ما يحتاجُ إليهِ عبادُهُ دونَ افتقارٍ إليه وإليهم

إيثارُ اسم الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ ذي العظمةِ والجلالِ، الَّذي أوجدَ ما يحتاجُ إليهِ عبادُهُ، ولا حاجةَ بهِ إليهِ بوجهٍ مِنَ الرِّبحِ في التِّجارةِ، أو تعلُّمِ العِلْمِ[2]، فاسمُ الجلالةِ يُضفي العظمةَ والكمال والجلال والجمال على الفضل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

المذكورِ، فيكونُ ذلك علَّةً في المعنى للضَّرب في الأرض والابتغاء مِن فضل الله، ويفيدُ أيضًا أنَّ مِثْلَه ﷻ غنيٌّ عن عباده وعمَّا يُعْطيه لهُم.

**دلالة العطفِ في ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ﴾:**

العنايةُ بذكرِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ

إذا كانَ المرادُ بالضَّربِ في الأرضِ السَّفرَ للتِّجارةِ، أو للغزوِ أو لطلبِ العلم، فعطفُ قولِه: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ تخصيصٌ بعدَ التَّعميم، والغرضُ منهُ العنايةُ بذكرِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، الَّذي هو ذروةُ سنامِ الإسلام، وإنْ لم يكن الضَّربُ في الأرضِ شاملًا للغزوِ؛ فهو عطفُ صنفٍ آخرَ مختلفٍ عمّا سبقَ[1]، وهو مِن تمامِ ما قبلَه؛ لأنَّ الأوَّل هو حالُ السِّلْم، والثَّاني هو حالُ الحربِ، والإعذارُ في حالِ السِّلْمِ مُقدَّمٌ عليه في حال الحربِ؛ لأنَّ حال الحرب طارئةٌ.

**سرُّ الموافقة والمغايرة في النَّظْمِ:**

السَّفرُ لكسبِ الحلالِ كالجهادِ في سبيلِ اللهِ

في قولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تنبيهٌ على التَّسويةِ بينَ المجاهدينَ والمسافرينَ لكسبِ الحلالِ؛ وذلكَ أنَّهُ أُعيدَ ذكرُ: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وقوبِلَ قولُهُ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، بقولِه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ جُمِعا في قولِه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ لفظًا مِنْ حيثُ الضَّميرُ، وحكمًا في الأمرِ بالقراءةِ على سبيلِ التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، وكانَ أصلُ الكلامِ: عَلِمَ أنْ سيكونُ منكم مرضى ومسافرونَ، فقسَّمَهم قسمينِ: المُبتغينَ مِنْ فضلِ اللهِ، والمجاهدينَ[2]، ولعلَّ تقديمَ الّذين يضربونَ في الأرضِ على الَّذين يقاتلونَ أنَّ الأصلَ هو السِّلم، وأمّا الحرب؛ فحالةٌ استثنائيَّةٌ لا تدومُ، بخلاف التجاراتِ وطلبِ العُلوم والرِّحلةِ في الأرض للتكسُّبِ والتعيُّشِ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 397.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 105 - 106.

### دلالةُ المضارعة في ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

في المضارعة إخبارٌ بالغيب، وتبشيرٌ بالفتح الإسلاميّ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ القتالَ لم يكنْ شُرِعَ بعدُ، وفي الإخبارِ بذلكَ دليلٌ مِن أكبرِ دلائلِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّهُ مِن بابِ الإخبارِ بالمغيَّباتِ المستقبلةِ، والمضارعُ مِن صيغِ الاستقبالِ، ولو قيل: (وآخرون أهل قتال في سبيل اللّه)؛ لفات ذلك[1]، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى تجدُّد القتال وتكراره واستمراره؛ كلَّما كان لذلك موجِبٌ شرعيٌّ، ففيه مدحهم، وإشارةٌ إلى أنَّ الإسلام سيدخلُ أماكنَ جديدةً في بلادِ الدُّنيا، وتلك بشارةٌ عظيمةٌ، وقد كان ذلك.

### دلالة صيغةِ المفاعلةِ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

القتالُ صراعٌ بينَ طرفَيْنِ

عُبِّرَ بصيغةِ المفاعلةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ القتالَ أمرٌ مشتركٌ بينَ طرفين، كلٌّ منهما يقاتلُ الآخرَ، ويحرصُ على غلَبتِه، ولأنَّ الأصلَ أنَّ أهلَ الإسلامِ والإيمان لا يَستأنفونَ القتال مع أعدائِهم، بل يكونونَ في حالِ الإعلامِ بالقِتال أوَّلًا، ثمَّ يُقاتِلونَ.

### علَّة التَّعبير بالسَّبيلِ:

الطَّريقُ إلى اللهِ واضحٌ لا غبش فيه

أوثرَ السَّبيلُ في قولِه ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالةِ لفظِ السَّبيلِ على سهولةِ الطَّريقِ ويُسْرِه ووضوحِه، ولذلكَ كَثُرَتْ هذه الإضافةُ في القرآنِ الكريم، والغرضُ مِن التّعبير بذلك دَفْعُ توهُّم أنَّ القتال مِن أجلِ الإكراه على اعتقادِ دين اللّهِ؛ لأنَّه صعبٌ على النَّفْسِ، مُناقِضٌ للفطرة، أو مضادٌّ لها، ونحوُ ذلك، فدين اللّه المُعبَّرُ عنه بالسَّبيلِ يسيرٌ تعلُّمُه، سهلٌ العملُ به، ممكنٌ اعتقادُه؛ لوضوحه ومناغاته الفِطْرة.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 258.

### سِرُّ الإظهار في موضع الإضمار ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

عظمةُ شأنِ الجهادِ والمجاهدين في سبيلِ اللهِ

إظهارُ اسم الجلالةِ وتكرارُهُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما يدلُّ عليه هذا اللَّفظُ مِن صفاتِ العظمةِ والجلالِ للّهِ تعالى، الَّذي لا ينبغي أنْ يكونَ القتالُ إلّا لأجلِ رِضاهُ، ففي إظهاره تعظيمُ الجهادِ، وتفخيمُ شأنِ السَّبيلِ[1]، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى قوَّة حضورِ اللّه جلالًا وجمالًا وكمالًا في نفوسِ هؤلاء المقاتلين، ففيه تعليلٌ قويٌّ في المعنى لقتالهم.

### معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾:

المشقَّةُ قد تجلبُ التَّيسيرَ

(الفاءُ) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾؛ للتَّفريعِ، فتفيدُ تسبُّبَ التَّرخيصِ عن الأعذارِ المذكورةِ[2]، ويَحتملُ أنْ تكونَ (الفاءُ) فصيحةً، وهي واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، والمعنى: إذا كانَ الأمرُ كما ذُكِرَ، وتعاضدتِ الدَّواعي إلى التَّرخيصِ؛ فاقرَؤوا ما تيسَّرَ منهُ مِن غيرِ تحمُّلِ المشاقِّ[3].

### سرُّ تكريرِ الأمرِ بالقراءةِ:

توكيدُ رحمةِ اللهِ ولطفِهِ بعبادِه بالتَّرخيصِ

تكريرُ الأمرِ بالقراءةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾؛ لتوكيدِ التَّرخيصِ والتَّيسيرِ[4]؛ لأنَّ عادتَهم شدَّةُ الاحتياطِ في الدِّينِ[5]، وفي التَّكريرِ أيضًا بيانٌ لمزيدِ عظمةِ القراءةِ[6].

### نكتةُ العطفِ في ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الصَّلواتُ الخمسُ هي الَّتي يجبُ المحافظةُ عليها

عطفُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على ما قبلَهُ؛ للتَّذكيرِ بأنَّ الصَّلواتِ الواجبةَ هي الَّتي تحرصونَ على إقامتِها وعدمِ التَّفريطِ فيها، وللإيماءِ إلى أنَّ في الصَّلواتِ الخمسِ ما يرفعُ التَّبعةَ عن المؤمنينَ، وأنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 34.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 34.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 53.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 695، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 386.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 560.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 34.

قيامَ اللَّيلِ نافلةٌ لهم، وفيهِ خيرٌ كثيرٌ[1]، ولمَّا كان قولُه تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ صالحًا لأنْ يُراد به الصّلاة؛ لكونه أعظمَ أركانها، وأنْ يُراد به نفْسُه مِن غير صلاةٍ؛ زيادةً في التَّخفيفِ؛ قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ ترجيحًا لإرادة هذا الثَّاني، أو تنصيصًا على إرادة الأوَّل[2].

### دلالةُ الأمرِ في ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾:

الصَّلاةُ مِن فرائضِ الإسلامِ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ للوجوبِ، واستُشكِلَ بأنَّ السّورةَ مِن أوائلِ ما نزلَ بمكَّةَ، ولم تُفرَضِ الصَّلواتُ الخمسُ إلّا بعدَ الإسراءِ، والزَّكاةُ إنَّما فُرِضَتْ بالمدينةِ؟ وأُجيبَ بجعلِ هذهِ الآياتِ مدنيَّةً، أو أنَّ الزَّكاة فُرِضَتْ بمكَّةَ مِن غيرِ تعيينٍ للأنصباءِ، والَّذي فُرِضَ بالمدينةِ تعيينُ الأنصباءِ، فيمكنُ أنْ يرادَ بالزَّكاةِ الزَّكاةُ المفروضةُ في الجملةِ، فلا مانعَ مِنْ كونِ الآياتِ مكّيَّةً[3]، وإبرازُ الطَّلب على سبيلِ الوجوبِ بصيغةِ الأمرِ إشارةٌ إلى أنَّ تحقيقَ المأمورِ به مرغوبٌ فيهِ بقوَّةٍ.

### علَّة التَّعبيرِ بالإقامةِ:

صلاةُ المؤمنِ تكونُ على أكملِ صورةٍ

عُبِّرَ بالإقامةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فلم يقل: (فصلّوا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المرادَ توفيةُ حدودِها وحقوقِها، والإتيانُ بجميعِ أركانِها، وشروطِها، ومقدِّماتِها، ومتمِّماتِها، وهيئاتِها، ومحسِّناتِها، ومكمِّلاتِها[4]، وليسَ المرادُ إيقاعَها فقط، فلو قيل: (وصلُّوا)؛ لمَسَّ الصَّلاةَ مِن التَّخفيفِ والتَّرخيصِ الكائنِ في سياقِ الآيةِ ما يمَسُّها، فاحتُرِسَ مِن ذلك بذِكْرِ الإقامة.

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

العهد الذِّهنيُّ قد يكون تقديريًّا

تعريفُ الصَّلاةِ بـ(أل) في قولِه ﷺ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ للعهدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 287.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 126.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.

العلميِّ التّقديريِّ؛ إذ المرادُ بها الصَّلواتُ الخمسُ المفروضةُ[1]، فهي الَّتي يجبُ الإتيانُ بها على الوجهِ الكاملِ في المقامِ الأوَّلِ، ولم تكن الصّلاةُ قد فُرِضَت قبلَ نُزول هذه الآيةِ على أنَّها مكّيَّة، فقد نُزِّلت الصّلاةُ المَفروضة غير المعروفة لهم - لأنَّهم لم يُقيموها قبلُ - منزلةَ الصّلاة المعروفة لهُم، والَّتي صلُّوها في اللَّيلِ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

**دلالة عطفِ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:**

لمّا ذُكِرَتِ الصَّلاةُ الَّتي هي أحدُ عمودَيِ الإسلامِ، البدنيِّ والماليِّ؛ أُتبِعَتِ العمودَ الآخرَ، وهو الزَّكاةُ الَّتي هي الوصلةُ بينَ الخلائقِ، فقيلَ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2]؛ ليكونَ المأمورُ بهما مِن أهل الكمالِ، فيكون إيمانه كاملًا تامًّا؛ لكون ذلك في سلكِ ما هو مِن شأنِ الكُمَّلِ، مِن القيام باللَّيلِ، الَّذي صُدِّرَت به السُّورةُ، وبه خُتِمت أيضًا.

**إتباعُ فريضةِ الصَّلاةِ بقرينتِها**

**دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:**

تعريفُ الزَّكاةِ بـ(أل) في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ - معَ أنَّ المرادَ بها الزَّكاةُ الواجبةُ شرعًا؛ تنزيلًا للزَّكاةِ غير المعروفةِ لهُم - لأنَّ مكَّة حين نزول هذه الآية على كونها مكِّيَّة لم يكن فيها زكاة مفروضةٌ - منزلةَ الزَّكاة المعرفةِ لهم قبلُ؛ تنبيهًا على ضرورة فشوِّها في أهل الإسلام والإيمان؛ لأنَّها مِن سُبُل الكمال؛ إذ بها صلاح المجتمع، فـ(أل) للعهد العلميِّ التّقديريّ؛ إنْ صحَّ التّعبير، ومَن فسَّرها بالزّكاة المفروضة؛ جعَل آخرَ السُّورة مدنيًّا، وهي حقُّ اللّهِ في المالِ، وقيل: هي زكاة الفطر؛ إذ لم يكُن بمكَّةَ زكاةٌ[3]، فـ(أل) حينئذٍ للعهد العلميِّ، أي: الحقيقيِّ المقابل للتّقديريِّ.

**الزّكاة الواجبةُ شيءٌ لا بُدَّ منه في المجتمع المسلم**

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 258، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 58.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 258، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 421.

**دلالةُ العطفِ في ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾:**

أبوابُ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ كثيرةٌ

لمّا ذكرَ ﷻ الزَّكاةَ الواجبةَ؛ أتبعَهُ سائرَ الإنفاقاتِ غيرِ الواجبةِ، فقالَ: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1]، وفي ذلكَ بيانُ سَعَةِ أبوابِ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، وأنَّها لا تقتصرُ على الواجبِ؛ وذلكَ تنبيهٌ على بابٍ مِن أبوابِ الكمالاتِ بفتحِ بابِ الكمالِ في الإنفاقِ، في مواجهةِ التّرخيصِ والتّخفيفِ؛ جريًا على سلكِ الكمالِ بالأمرِ بالقيامِ باللّيلِ في أوّلِ السُّورةِ.

**بلاغةُ المجازِ ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾:**

اللهُ يُثيبُ يومَ القيامةِ على التَّصدُّقِ

إقراضُ اللهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: هو الصَّدَقاتُ غيرُ الواجبةِ؛ شُبِّهَ إعطاءُ الصَّدقةِ للفقيرِ بقرضٍ يقرضُهُ اللهُ؛ لأنَّ اللهَ وعدَ على الصَّدقةِ بالثَّوابِ الجزيلِ، فشُبِّهَ حالُ مُعطي الصَّدقةِ - مُستجيبًا رغبةَ اللهِ فيهِ - بحالِ مَنْ أقرضَ مُستقرِضًا في أنَّهُ حقيقٌ بأنْ يُرْجَعَ إليهِ ما أقرضَهُ؛ وذلكَ في الثَّوابِ الَّذي يُعطاهُ يومَ الجزاءِ[2]، وذلك على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، وإنَّما أضافَهُ اللهُ تعالى إلى نفسِهِ؛ لئلّا يمنَّ على الفقيرِ فيما يتصدَّقُ بهِ عليهِ، وهذا لأنَّ الفقيرَ معاونٌ لهُ في تلكَ القُربةِ، فلا يكونُ لهُ عليهِ مِنَّةٌ، بل المِنَّةُ للفقيرِ عليهِ[3]، وبلاغةُ الاستعارةِ كامنةٌ في الإبلاغِ في طمأنةِ المُنْفِقِ؛ بأنَّ ما سيُنفقُهُ محفوظٌ لهُ عندَ اللهِ، مُبارَكٌ لهُ فيهِ؛ ليَرُدَّهُ عليهِ مُضاعَفًا، والعبدُ أحوجُ ما يكونُ إلى إحسانِ اللهِ مِن إنفاقِهِ على غيرِهِ، فالتَّمثيلُ جارٍ على سلكِ المبالغةِ.

**دلالةُ الأمرِ ﴿وَأَقْرِضُواْ﴾:**

الإبلاغ في الحثِّ على وجوهِ الإنفاقِ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالقرضِ هو صدقةُ التَّطوُّعِ، فالأمرُ للنَّدبِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 287.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 560.

ويَحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بإقراضِ اللّه قرضًا حسنًا أداءَ الزَّكاةِ على أحسنِ وجهٍ، وهو إخراجُها مِنْ أطيبِ الأموالِ وأكثرِها نفعًا للفقراءِ، ومراعاة النِّيَّة، وابتغاء وجه اللّه، والصَّرف إلى المُستحِقِّ، وعلى هذا فالأمرُ للوجوبِ، ويَحتملُ أنْ يكونَ المرادُ كلَّ شيءٍ يُفعَلُ مِنَ الخيرِ ممّا يتعلَّقُ بالنَّفسِ والمالِ[1]، فالأمرُ مشترَكٌ بين الوجوبِ والنَّدْبِ، وعلى كلٍّ في إبراز هذه الدّلالة في صيغة الأمر إبلاغٌ في طلبِ تحقيقِها، فهي شيءٌ مرغوبٌ تحقيقُه بقوَّةٍ؛ وذلك إحسانٌ إلى الفقيرِ والغنيِّ على حدٍّ سواءٍ.

### علَّة التَّعبير باسم الجلالة:

أوثِرَ اسم الجلالةِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ لدلالتِهِ على ذي العظمةِ الَّذي لهُ جميعُ صفاتِ الكمالِ، والَّذي ينبغي بذلُ الغالي والنَّفيسِ في سبيلِهِ[2]، فيكون فيه كمالُ ترغيبٍ في الإقراضِ المذكورِ، وهو أيضًا قرينةٌ على أنَّ الإقراضَ ليس على ظاهره؛ لأنَّ اللّه الواحد الأحد الفرد الصّمد لا يفتقرُ إلى أحد، ويفتقر إليه كلُّ أحدٍ.

مَـــن عـــرَف العظيمَ؛ أقبل عليه بكُلِّيَّتِه

### سِرُّ ذِكْرِ المفعولِ المطلقِ ﴿قَرْضًا﴾:

جيءَ بالمفعولِ المطلقِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ لتوكيدِ الأمرِ بالقرضِ؛ إبلاغًا في الإقبالِ على تحقيقِه؛ لأنَّ فيه كلَّ خيرٍ للمُنْفِق، فلا يُتهاوَن في الاستجابة فيه، وللتَّوصُّلِ بوصفِهِ بما وُصِفَ بهِ.

الإقـــراض مِـن أبـواب الكمال، فلا بُدَّ أنْ يُحقَّقَ

### علَّة الوصفِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾:

وُصِفَ القرضُ بالحسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ ينبغي أنْ يكونَ ممّا قُصِدَ بهِ وجهُ اللّهِ

الإرشـادُ إلى ما به يعلو الإنفاق ويسمو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 695.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.

تعالى، وأنْ يكونَ سالمًا مِنَ المنِّ والأذى، وأنْ يكونَ خالِصًا طَيِّبًا[1]، فهذا الوصفُ هو ذِرْوةُ المعنَى في التَّركيبِ، وبغيابِه يفسدُ الإنفاقُ، ولا يكون مقبولًا عند الله تعالى.

### سِرُّ الوصلِ في ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:

وصلُ الخاصِّ بالعامِّ إحسانٌ إلى المُتلقِّي؛ لإرشاده إلى أبواب الكمال

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن، فالمعطوفُ عليه إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، نوعُه الأمر، والمعطوفُ خبرٌ في اللَّفظِ، إنشاءٌ في المعنَى، ومعناه الأمرُ، وهو مِن قبيل عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّه أمرٌ عامٌّ بجميعِ شرائعِ الدِّين، تعريفًا بجامعيَّة هذا الدِّين؛ لأنَّ السُّورة مكِّيَّةٌ[2].

### دلالة العطف ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:

ذِكْرُ العامِّ يُفْهِمُ إمكانَ استيفاء الخاصِّ

عطفَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، على قولِه تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، والمعطوفُ تذييلٌ لِما سبقَ مِنَ الأوامرِ، فإنَّ قولَهُ: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يعمُّ جميعَ فعلِ الخيرِ[3]، ففيه تحقيقٌ وتوكيدٌ لها وبيانٌ؛ لأنَّ العبد بإمكانه أنْ يستوفيَها على جهة الكمالِ والتّمام، ويَشرع في غيرها مِن أنواع الطَّاعات والخيرات، ولا يبعُدُ أنْ تكون الجملةُ اعتراضًا بينَ قولِه: ﴿وَأَقْرِضُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾، والغرضُ من الاعتراض بيانُ أنَّ أعمالَ الطّاعات يتحقَّقُ أثرُها في يومِ الجَزاء، وأنَّها أعمالٌ يعودُ نفعُها لكُم.

### بلاغة الجمع بين الإيجاز والإطناب ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:

مَنْ عرفَ جزاءَ الخيرِ؛ سعَى لفعلِهِ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: إيجازُ حذفٍ، والتَّقديرُ: وافعلوا الخيرَ، وما تُقدِّموا لأنفسِكم منهُ؛

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 58، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35 - 36.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.

تجدوهُ عندَ اللهِ، فاستُغنيَ عن المحذوفِ بذكرِ الجزاءِ على الخيرِ[1]، وهذا التّقديرُ يُقوِّي كونَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ إنشاءً في المعنَى، نوعُه الأمرُ، ويجوزُ ألّا يكونَ في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ تقديمَ الخيرِ هو فِعْلُه، وعلى تقديرِه يكونُ في الكلامِ إطنابٌ؛ لأنَّ المعنى المُطْنَبَ محذوفٌ، والوجهُ أنَّ الإبلاغَ في الإرشادِ إلى الإقبالِ على اللهِ ورسولِه يهدف إليه السِّياقُ، فالإطنابُ على وجه الإيجاز بالحذفِ بليغٌ.

**بلاغة الشَّرْطِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:**

طمأنة النُّفوسِ بتحقُّقِ جزاءِ الخير لا محالة

(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: شرطيَّةٌ[2]، وفائدتُها بيانُ ارتباطِ فعلِ الخيرِ بوجدانِ جزائِه عندَ اللهِ، وأسلوبُ الشَّرْطِ فيه نوعُ حسمٍ وفصلٍ، فيكون فيه توكيدٌ وتحقيقٌ للمعنى، وهذا مع ضميمةِ العُمومِ في قولِه: ﴿تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، يُنبئ بانتهاءِ الكلامِ، ففيه براعةُ المقطعِ، والإبهامُ في: (ما) يقوَى بمدِّ الألفِ فيها، وهذا الإبهامُ الوسيعُ ألصقُ بالعُمومِ المذكورِ، وأدْعَى للتَّنافُسِ.

**علَّةُ التَّعبيرِ بالتَّقديمِ:**

العملُ الصّالحُ عُدَّةُ المُقبِلِ على اللهِ

معنى تقديمِ الخيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: فعلُهُ في الحياةِ، شُبِّهَ فعلُ الخيرِ في مدَّةِ الحياةِ؛ لرجاءِ الانتفاعِ بثوابِه في الحياةِ الآخرةِ، بتقديمِ العازمِ على السَّفرِ أدواتِه وبعضَ أهلِه إلى المحلِّ الَّذي يرومُ الانتهاءَ إليه؛ ليجدَ ما ينتفعُ به وقتَ وصولِه[3]، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ في الفِعْلِ، ووجه فضل التَّقديم على الفِعْلِ هنا: المبالغة في الحثِّ على فعل الخيرِ، والإرشادُ إلى الإسراعِ في تحقيقِه، بإفهام أنَّ العبد في الدُّنْيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.

كالمسافرِ، الَّذي لا يطمئنُّ في سفره، ولا يركنُ إلى حاله فيه، بل يُسْرِع في تحقيقِ هدفه وطَلِبَتِه؛ حتّى يعودَ إلى وطنه، فهذه الاستعارةُ توحي بانتهاء الكلام أيضًا.

**دلالة المضارعة ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ و﴿تَجِدُوهُ﴾:**

المؤمنُ يُكثِرُ مِنَ العملِ الصّالحِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ للحثِّ على استمرارِ التَّقديم، وتكرارِه، وتجدُّدِه، والإكثارِ مِنَ العملِ الصّالحِ، ولأنَّ وجدانَ ثوابِ العملِ يكونُ يومَ القيامةِ؛ ففيه معنى الاستقبال، والمضارعةُ هي الألصقُ بالعُموم الَّذي في الكلام، وهو يقتضي التَّعدُّدَ والتَّنوُّعَ، فذلكَ يقتضي الكثرةَ الَّتي تستدعي التَّجدُّدَ والتَّكرارَ.

**معنى اللَّام ودلالتها في ﴿لِأَنفُسِكُم﴾:**

مَنْ عملَ صالحًا؛ فلنفسِهِ

(اللّامُ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ للمِلْكِ والاستحقاقِ، فتفيدُ أنَّ الإنسانَ الَّذي يعملُ صالحًا إنَّما يعملُهُ لنفسِهِ، فالنَّفعُ يعودُ عليهِ هو، لا على غيرِه، ففيها تمهيدٌ لإضافة الأنفُس إلى ضمير الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾، فيكونُ في الكلام إبلاغٌ في تحريك المُخاطَبينَ نحوَ تقديمِ الخير لأنفسهم.

**نكتة تقديم ﴿لِأَنفُسِكُم﴾:**

ثمرةُ العملِ تعودُ على صاحبِها خاصَّةً

قُدِّمَ قولُه: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ على قولِه: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ لإفادةِ الاختصاص، أي: وما تُقدِّموا مِن خيرٍ إلَّا لأنفسكم، وهو قصر صفة على موصوفٍ، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، فثمرةُ العملِ الصّالحِ تعودُ على صاحبِها خاصَّةً، وفي ذلكَ حثٌّ عليه[1].

**معنى ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها في ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾:**

المقدَّمُ هو الخيرُ العظيمُ

﴿مِّنْ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: بيانيَّةٌ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 36.

والغرضُ منها بيانُ إبهام (ما) الشَّرطيَّةِ[1]، وفي هذا تعظيمٌ وتفخيمٌ للمُبَيِّنِ، وتمكينٌ وتحقيقٌ للمُبيَّنِ في نفوس المُتلقِّينَ.

### علَّة التَّعبيرِ بالخيرِ:

فـي التَّعبير بالخيريَّة إقناعٌ هادئٌ

عُبِّرَ بالخيرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ لدلالتِهِ على ما وصفَهُ الدّينُ بالحُسْنِ، ووعدَ على فِعْلِهِ بالثَّوابِ، فهو ما يرغبُ فيه الكلُّ، كالعقل مَثَلًا، والعدلِ، والفضلِ، والشَّيْءِ النَّافعِ[2]، ففيه معنى العُموم، فهو ألصقُ بـ (ما)، وضِدُّه الشَّرُّ، ففيه حثٌّ على تقديمه للنَّفْسِ؛ لتُجْزَى عليهِ يومَ لا ينفعُها فيهِ إلّا الخيرُ، ويضرُّها فيه الشَّرُّ، وفيه أيضًا ترغيبٌ في الانقياد لدين الإسلام، وأنَّ كلَّ ما يتعلَّقُ به مِمَّا ورَد في السُّورةِ خصوصًا لا سيَّما الأعمال والطَّاعات خيرٌ، يُرَغَّبُ فيه، فالقرآنُ يقولُ لأهل الكفر والشِّرك خصوصًا: ما يحول بينكم وبينَ اتِّباعِ شرائعِ الإسلام، وتوجيهاته، فما دامَ الشَّرُّ منتفيًا عنها، وفيها الخيرُ؛ فما يضرُّكُم مِن اتّباعِها؟.

### غرضُ تنكيرِ ﴿خَيْرٍ﴾:

كـلُّ فعـلِ خيرٍ مطلـوبٌ مِـنَ المؤمنِ

تنكيرُ ﴿خَيْرٍ﴾ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ للعُموم، أي: وما تقدِّموا أيَّ خيرٍ كانَ مِمّا ذُكِرَ، ومِمَّا لم يُذكَرْ[3]، وفي هذا فتحُ أبوابِ الخير أمامَ العبادِ؛ ليجتهدوا فيها؛ علمًا وعملًا، ويتْبَعُ العُمومَ معنَى التّعظيم أيضًا؛ لأنَّ ضدَّه الشَّرُّ، فهو مذمومٌ، فيكونُ الخيرُ ممدوحًا، والتَّعْظيمُ للمدحِ.

### بلاغةُ إيقاعِ الوجدانِ على المقدَّمِ نفسِهِ:

ثـوابُ العمـلِ مُـنـزَّلٌ منزلةَ العملِ

معنى: ﴿تَجِدُوهُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: تجدوا جزاءَهُ وثوابَهُ، وهو الَّذي قصدَهُ فاعلُهُ، فكأنَّهُ وجدَ نفسَ الَّذي قدَّمَهُ، وهذا استعمالٌ كثيرٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 36، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 53.

أنْ يُعبَّرَ عن عِوَضِ الشَّيءِ وجزائِهِ باسمِ المُعوَّضِ عنهُ، والمُجازَى بهِ[1]، وهذا يعني أنَّ الجزاء مِن جنس العمل، ويُفْهِم معنًى طريفًا، وهو أنَّ العملَ حاضرٌ في الجزاءِ حينَ مشاهدةِ الجزاءِ، والاتِّصافِ بهِ، والتَّمتُّعِ بهِ، وهذا إبلاغٌ عظيمٌ في طلبِ أنْ يُقدِّم الإنسانُ لنفسه خيرًا، وأنْ يُحِبَّ هذا الخيرَ، ويَنْتقيَه، وأنَّ عليه أنْ يتصوَّر الجزاء في العمل الَّذي سيعملُه؛ فذلك جاعلُه مصطفيًا العمل الأجود، وقائمًا به على أتمِّ وجهٍ وأكملِه في حدودِ قدرته.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالعنديَّةِ في ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

ثـوابُ العظيمِ شأنُهُ عظيمٌ

كلمةُ ﴿عِندَ﴾ ظرفُ مكانٍ، وقد تكونُ ظرف زمان، والدَّالُّ على ذلكَ ما تُضافُ إليهِ، وقد تكونُ هذه العنديَّة حقيقيَّةً، كما في قولك: (عندي رجلان حافظان القرآن)، و(سآتيك عندَ أذان العِشاء)، وقد تكونُ مجازيَّةً؛ إذا لم يصلح تفسيرُها بالمكان أو الزَّمان، كما في قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: تجدوا جزاءَ ما تُقدِّمونه عند الله، واللهُ مُجرَّدٌ عن الزّمان والمكانِ، فكلمةُ: ﴿عِندَ﴾ ليست للمكان، بل للمكانة؛ لتعظيم شأنِ ثوابِ العملِ الصّالحِ ببيانِ أنَّهُ مِنَ الحقِّ ﷻ، فهي دالَّةٌ على الاستعارة التّصريحيّة التّمثيليّة، ولا يوجد مِن اللَّفظ المُعبِّر عن المشبَّه به المستعار منه إلّا الجزءُ الَّذي هو: ﴿عِندَ﴾[2]، فقد صَوَّرَ القرآنُ مكانةَ العملِ الصَّالحِ وجزائِه عندَ الله المُجازي، بحفظِ هذا العملِ وجزائِه عندَ اللهِ تعالى، قال البقاعيُّ: "﴿تَجِدُوهُ﴾ محفوظًا لكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾"[3].

### علَّة التّعبير باسم الجلالة:

اللـهُ لا يُضيعُ عملَ عاملٍ

أوثرَ اسم الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، والمعنى: عندَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 317.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218.

المحيطِ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا[1]، وفي ذلكَ بثٌّ للطُّمأنينةِ في نفوسِ العاملينَ ببيانِ أنَّهُ لا يَضيعُ عندَهُ تعالى عملُ عاملٍ منهم، ففي اسمِ الجلالةِ المُهيمنِ على جميعِ الأسماءِ والصِّفاتِ كلِّها توكيدٌ وتحقيقٌ للوجدانِ المذكورِ، فحثٌّ شديدٌ على تقديمِ الخيرِ المذكورِ أيضًا.

**فائدةُ الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾:**

نُصِبَ كلٌّ مِن قولِه: ﴿خَيْرًا﴾، و﴿وَأَعْظَمَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ على المفعولِ الثّاني لـ﴿تَجِدُوهُ﴾، و﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصلٍ[2]، وفائدتُهُ هنا مُجرَّدُ التَّوكيدِ لتحقيقِهِ[3].

خيريَّةُ الثَّوابِ وعظمتُهُ مؤكَّدةٌ

**فائدةُ اسمِ التَّفضيلِ ﴿خَيْرًا﴾:**

كلمةُ ﴿خَيْرًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾: اسمُ تفضيلٍ، أي: خيرًا ممّا تُقدِّمونَهُ؛ إذ ليسَ المرادُ أنَّكم تجدونَهُ مِنْ جنسِ الخيرِ، بل المرادُ مضاعفةُ الجزاءِ[4]، فصيغةُ التَّفضيلِ على ظاهرِها، وفي ذلكَ كلُّ ترغيبٍ في أنْ يُقدِّم الإنسانُ لنفسه خيرًا.

الحسنةُ بعشرِ أمثالِها، واللهُ يضاعفُ لمَن يشاء

**دلالة عطفِ ﴿وَأَعْظَمَ﴾:**

عطفَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ على ما قبلَهُ: ﴿خَيْرًا﴾؛ لزيادةِ تعظيمِ الثَّوابِ؛ ببيانِ أنَّهُ خيرٌ وأعظمُ ممّا قدَّموهُ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الجزاءَ على تقديمِ الخيرِ يتعدَّى الدَّارَ الدُّنيا إلى الدَّارِ الآخرةِ، وأنَّ ما في الآخرةِ مِن جزاءٍ هو أعظمُ مِن جزاءِ الدُّنيا[5].

ثوابُ اللهِ أكبرُ مِن عملِ العبدِ

**بلاغةُ الحذفِ في ﴿خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾:**

في قولِهِ تعالى: ﴿خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾: إيجازٌ بحذفِ المُفضَّلِ

لا يستوي عملُ العبدِ وجزاءُ الرَّبِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 36.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 59.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288 - 289.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 289.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 289.

عليهِ؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، أي: خيرًا وأعظمَ أجرًا مِنَ الخيرِ الَّذي قدَّمتموهُ، فكان العملُ سبيلًا للتَّعرُّضِ لفضلِ اللّه وعطائِه وكرمِه، فليس يُكافئ الجزاءَ، وإذا كان الجزاءُ بهذه الصِّفة العظيمة؛ كان مِن شأن العبد النَّاصحِ لنفسه أنْ يزيدَ مِن تقديم الخير لنفسه، وهو في الدَّار الدُّنيا.

**دلالة العطف في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾:**

قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، فيكونُ للمعطوف حكمُ التَّذييلِ؛ إرشادًا لِتدارُكِ ما عسى أنْ يَعرِضَ مِنَ التَّفريطِ في بعضِ ما أمرَهُ اللّهُ بتقديمِهِ مِنْ خيرٍ، فإنَّ ذلكَ يشملُ الفرائضَ الَّتي يقتضي التَّفريطُ في بعضِها توبةً منهُ، وإنْ كانتِ الجملة اعتراضيَّةً؛ فإنَّ المعطوفَ عليه ﴿وَأَقْرِضُواْ﴾؛ ليكونَ الاستغفار مُرتبطًا بأداء الصَّلاة والزَّكاة والإقراضِ حتى لا ينبهرَ الإنسان بعملِهِ، بل يُكثرُ من الاستغفار عمّا يصدُرُ عنهُ مِن تقصيرٍ.

**المؤمنُ مُقصِّرٌ، وإنْ حرصَ على الطّاعةِ**

**سِرُّ الوصل في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾:**

يجوزُ أنْ تكونَ (الواوُ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ للعطفِ، فيكونُ ما بعدها معطوفًا على جملة: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ لأنَّ الثَّاني: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ إنشاءٌ صريحٌ لفظًا ومعنًى، نوعُه الأمرُ، والأوَّلُ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾: خبرٌ في اللَّفظ، إنشاءٌ في المعنى؛ إذ معناه: قدِّموا لأنفسكم خيرًا تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا، ويجوزُ أنْ تكونَ (الواوُ) للاستئنافِ، وتكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن التَّرخيص في تركِ بعضِ القيام؛ إرشادًا مِنَ اللّهِ لِما يسدُّ مسدَّ قيامِ اللَّيلِ الَّذي يَعرِضُ تركُهُ، بأنْ يستغفرَ المسلمُ ربَّهُ؛ إذا انتبهَ مِنْ أجزاءِ اللَّيلِ[1]،

**الاستغفار مِن تمام كلِّ الأعمال الصَّالحةِ**

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 289 - 290.

فكأنَّ سائلًا سألَ عمَّا يسُدُّ مسدَّه، فكانَ الجوابُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾، والظَّاهرُ غيابُ الواو؛ لكنّها وردت على خلاف الأصل؛ بيانًا لعِظَمِ كون استغفار اللّه سادًّا مَسَدَّ ما يَعْرِضُ تركُه من قيامِ اللّهِ؛ لِما في الواو من الاحتفالِ به، وإفادةِ أنَّه عملٌ مستقلٌّ يُرجَى تحقيقُه من العبدِ، وأنَّه إنْ ورَد هنا من تمام قيام اللّيل؛ فإنّ ذلك لا يَعني تقليلًا ما من شأنِه، ففي الواو دفع توهُّم شيء من ذلك، بما فيها من معنى المُغايرة الَّذي لا يبرحُها، والَّذي يترجّحُ لدَينا أنَّ (الواو) عاطفةٌ على الأوامرِ السّابقة، والجملةُ الشرطيَّة ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾...-إلى آخره- اعتراضيّةٌ.

### دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾:

الأمرُ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ للإرشادِ، والغرضُ منهُ حثُّ المؤمنينَ على الاستغفارِ لِما يَصدُرُ مِنَ التَّفريطِ والتَّقصيرِ، وفي إبرازِ النُّصْحِ به والإرشادِ إليهِ في صيغة الأمر تنبيهٌ لطيفٌ على ضرورة الإقبالِ على هذا الاستغفار، وأنَّه ينبغي أنْ يكون العبدُ راغبًا فيه بقوَّةٍ؛ لأنَّ فيه صلاحَه كلَّه.

إرشادُ المؤمنينَ لِما يسدُّ النَّقصَ في العملِ

### دلالة صيغةِ الاستفعالِ في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾:

صيغةُ الاستفعالِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للطَّلبِ، والمعنى: اطلُبوا، وأوجدوا سترَ اللّهِ تعالى ومغفرتَهُ لذنوبِكم وتقصيرِكم[1].

المؤمنُ يطلبُ سترَ اللهِ وعفوَهُ

### سِرُّ الإظهار في موضع الإضمارِ في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾:

مقتضَى الظّاهرِ أن يقالَ: (واستغفروه)؛ لتقدُّم ذكرِ اسم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وإنَّما عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لدلالةِ اسم الجلالةِ على صفاتِ العظمةِ

طاعةُ العبدِ قاصرةٌ عن أداءِ حقِّ العبادةِ للهِ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 59، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.

والكبرياءِ الَّتي تستوجبُ الفناءَ في خدمتِهِ، فيكونُ في إظهارِه إيماءٌ إلى أنَّهم لا يحيطونَ بمعرفتِهِ تعالى، فكيفَ يُحيطون بأداءِ حقٍّ - لتقصيرهم عينًا وأثَرًا - بفعل ما يُرضيه، واجتنابِ ما يُسخطه[1]؟ وفيهِ أيضًا تنبيهٌ على أنَّهُ تعالى لا يُخيِّبُ رجاءَ المستغفرِ، فهو ربُّ العطاءِ والكرمِ.

**علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:**

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ للأمرِ بالاستغفارِ، أي: لأنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، والمقصودُ مِنْ هذا التَّعليلِ التَّرغيبُ والتَّحريضُ على الاستغفارِ ببيانِ أنَّهُ مرجوُّ الإجابةِ[2]، وفي ذلك مزيدُ حثٍّ على أنْ يُقدِّم العبدُ لنفْسِه خيرًا؛ ليجدَه عندَ اللهِ هو خيرًا وأعظمَ أجرًا.

مَـن عـرَف اللـهَ غفورًا رحيمًا لم يترك الاستغفار

**سِرُّ توكيدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:**

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِهِ؛ لفْتًا إلى كمال عظمته، فإنَّ أحدًا ليس كاللهِ غفورًا رحيمًا، ففي التَّوكيدِ حثٌّ على التَّعرُّفِ على مغفرةِ اللهِ ورحمتِه، ولتقريبِ ما يستبعدُهُ مَن يستحضرُ عظمتَهُ سبحانَهُ وشدَّةَ انتقامِهِ، وقوَّةَ بطشِهِ[3].

اللـهُ يغفرُ مع اتِّصافِهِ بالانتقامِ

**سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:**

أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ، وكُرِّرَ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ إعلامًا بأنَّ صفاتِهِ سبحانَهُ لا تقتصرُ آثارُها على المستغفرينَ، ولا على مطلقِ السّائلينَ[4]، وهذا بيانٌ لعِظَمِ صفاتِه، وأنَّها صفاتُ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ الفريدةِ.

فيضُ عطاءِ اللهِ عظيمٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 290.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.

### نكتةُ التَّرتيب في ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ مِن آثارِ الرَّحمةِ

قُدِّمَ الغفورُ على الرَّحيم في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ تخليةَ العبدِ مِنَ الذُّنوبِ مِن آثارِ رحمتِهِ تعالى، فالكلامُ مِن قبيلِ تقديمِ المسبَّبِ على السَّببِ، فشفعُ المغفرة بالرَّحمة فيه أنَّ إحسانَ الله إلى عباده لا يكون بالمغفرة فقط، بل يكون بها وبأشياء أخرى كثيرة، وهذا أبلغُ في تقرير عظيم امتنانِهِ وإحسانِهِ - ﷻ - وهذا ناظرٌ إلى جواب الشَّرط: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

### دلالةُ صيغتَي (فعولٍ) و(فعيلٍ) في ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

اللهُ بالغُ العفوِ والمغفرةِ والرَّحمةِ

جيءَ بصيغتَي: (فَعولٍ)، و(فَعيلٍ) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بهاتينِ الصِّفتينِ؛ إبلاغًا في التَّرغيبِ في ديمومةِ العملِ الصَّالحِ، مِن القيامِ باللَّيلِ، وقراءةِ القرآنِ فيه وفي غيرِه، ومِن الإنفاقِ في الخيراتِ الواجباتِ وغيرِ الواجباتِ، وغيرِ ذلكَ مِن الأعمالِ الصّالحاتِ الأقوالِ والأفعالِ، وذلك مِن بعدِ التَّخفيفِ عليهم فيها، والمعنى: بالغُ السَّترِ لأعيانِ الذُّنوبِ وآثارِها؛ حتَّى لا يكون عليها عتابٌ، ولا عقابٌ، بالغُ الإكرامِ بعدَ السَّترِ؛ إفضالًا وإحسانًا، وتشريفًا وامتنانًا[1].

### نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

فضلُ اللهِ عامٌّ لعبادِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: معناهُ: يغفرُ سبحانَهُ ذنبَ مَنِ استغفرَهُ، ويرحمُهُ، ففي حذفِ المعمولِ دلالةٌ على العموم[2]، وأنَّ ذلكَ لا يقتصرُ على المستغفرِ، فعموم الذَّنْب المغفور والعبدِ المرحوم غايةُ التَّرغيبِ في طاعته - ﷻ - وذلك مسلكٌ آخر آيةٍ في السُّورةِ؛ إذ التَّخفيفُ والرَّحمةُ البالغَةُ، مِن بَعْدِ التَّكليفِ بالأعلى في صدرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 127.

السُّورةِ، والتَّرهيبِ العظيمِ باليوم الآخِر وعقابِ المُكذِّبينَ فيه في الآياتِ الَّتي جاءَت بعدَ المطلعِ.

### وجهُ ردِّ آخرِ السّورةِ على أوَّلِها:

العملُ الصّالحُ أوَّلُ شأنِ المؤمنِ وآخِرُهُ

آخِرُ جزءٍ في آخِرِ آيةِ السُّورةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأمَّا رجوعُ آخِرِ آيةٍ إلى أوَّلِ السُّورةِ؛ فظاهرٌ جِدًّا، فكلاهما حديثٌ عن القيامِ باللّيلِ، وأمَّا رجوعُ آخِرِ جزءٍ في آخِرِ آيةٍ إلى أوَّلِها؛ فلطيفٌ، فإنَّه يَعني أنَّ الوصولَ إلى رضا اللّه ورضوانه في الدُّنْيا والآخرة بالطَّاعة يفتقر إلى اجتهادٍ عظيمٍ، ففيه عظيمُ ترغيبٍ في العملِ عمومًا، وأفضلُ الاستغفارِ ما كان في الثُّلُثِ الأخيرِ من اللّيل، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: 17]، فكانَ آخِرُ جزءٍ في الآيةِ يرجعُ إلى أوَّلِ السُّورة رجوعَ العِلَّةِ إلى المعلولِ، والعامِّ على الخاصِّ؛ ليُؤكِّدَه، قال البقاعيُّ: "ولقد رجَعَ آخِرُ السّورةِ - بالتَّرغيبِ في العملِ وذكرِ جزائِهِ - على أوَّلها؛ بالأمرِ بالقيامِ بينَ يديهِ، وبإشارة الاستغفارِ إلى عِظَمِ المقامِ؛ وإنْ جلَّ العملُ، ودام، وإنْ كانَ بالقيامِ في ظلامِ اللّيالي، والنَّاسُ نيامٌ"[1].

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الطّائفةُ والشّيعةُ:

المؤمنونَ يُقبِلونَ عـلى بعضِهم وعلى النَّبيِّ ﷺ

الشّيعةُ: الجماعةُ الَّتي تشايعُ غيرَها على ما يريدُ، أي: تطيعُهُ، وتنصرُهُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: 15]، وشيعةُ الرَّجلِ هم الجماعة الماثلة إليه، مِن محبَّتهم له، وأصلُها مِن الشِّياع، وهي الحطب الدِّقاق الَّتي تُجعل مع الجزل في النَّار؛ لتشتعل كأنّه يجعلُها تابعًا للحطب الجزل؛ لتُشرق، وأُطلِقَ على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 219.

الفِرْقةِ مِنَ النّاسِ على سبيلِ التَّوسُّعِ بعلاقةِ الإطلاقِ عن التَّقييدِ، والطّائفةُ: الجماعةُ مِنَ النّاسِ الَّتي مِن شأنها الطّوف في البلادِ للسّفر، ويجوز أنْ يكون أصلها الجماعةَ الَّتي تستوي بها حلقة يُطاف عليها، ثُمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّي كلّ جماعة طائفة[1]، فالطّائفةُ جماعة ذات قوّة وصلابة، فهي قادرة على فعل ما تريد على جهة الكمال والتّمام، واختيرَ لفظُ الطّائفة هنا؛ للدِّلالةِ على الجماعةِ الَّتي فيها أهليَّةُ التَّحلُّقِ؛ بإقبالِهم على النَّبيِّ ﷺ، وإقبالِ بعضِهم على بعضٍ[2]، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهُم، وثناءٍ عليهِم.

### الإحصاءُ والعدُّ:

عـــدمُ إطـاقـةِ المؤمنينَ المواظبةَ على قيامِ اللَّيلِ

الإحصاءُ أخصُّ مِنَ العدِّ، فهو عدُّ الشَّيءِ وتحصيلُهُ، والإحاطةُ بهِ، ومعرفةُ تفاصيلِهِ وجزئيّاتِه[3]، فهو ثمرةٌ للعَدِّ، والعَدُّ سبيلٌ إليه، وهو هنا مستعارٌ للإطاقةِ، شُبِّهتِ الأفعالُ الكثيرةُ مِن ركوعٍ وسجودٍ وقراءةٍ في قيامِ اللَّيلِ، بالأشياءِ المعدودةِ[4].

### المرضُ والسُّقمُ:

مـرضُ المؤمنينَ عَرَضٌ يزولُ

المرضُ عامٌّ، يُطلَقُ على مرضِ الجسدِ، وعلى مرضِ النُّفوسِ والقلوبِ، والمرضُ مؤقَّتٌ يُرجَى شفاؤُهُ، والسُّقمُ: المرضُ المختصُّ بالبدنِ، ويُطلَقُ على المرضِ المزمنِ الَّذي يطولُ، أو الَّذي لا يُرجَى شفاؤُهُ[5]، فالمرضُ أعمُّ مِن السُّقمِ مِن جهةٍ، ومقابلٌ للسُّقمِ مِن جهةٍ أخرى، وعُبِّرَ بالمرضِ هنا؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ لا يُشترطُ لتركِ القيامِ طولُ المرضِ، أو كونُهُ غيرَ مرجوِّ الشِّفاءِ.

(1) الأصفهاني، المفردات: (طوف)، والفروق اللغوية، العسكري: (طوف)، وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائري، ص: 307، 334، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 67.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 30.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 91 - 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(5) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 620.

### الإعطاءُ والإيتاءُ:

المـؤمـن يُـؤدّي الزَّكاة على وجه مقبول، ودون شعورٍ بالتَّفضُّل

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ كالقرآنِ، والحكمةِ، والمُلْكِ[1]، والإيتاءُ فيهِ معنى الوجوبِ والإلزامِ، وأمّا الإعطاءُ؛ ففيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[2]، والإيتاءُ فيه معنى السُّهولة، ويتْبعُها معنى الكثرة، وفي الإعطاءِ دليلُ التَّملُّكِ دون الإيتاء، يؤيّده قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]، فإنّه كان له منعُ مَن شاء منه، كالمالِك للملك، وأمّا القرآنُ؛ فحيثُ إنّ أمّته مشاركون له في فوائدِه، ولم يكن له منعُهم منه؛ قال ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقد عُبِّرَ بالإيتاءِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]؛ لأنَّ المرادَ الأمرُ برعايةِ حقوقِ الزَّكاةِ، لا بأصلِ الفعلِ فقط؛ وذلكَ أنَّ الإيتاءَ وإنْ كانَ معناهُ لغةً الإعطاءَ إلّا أنَّهُ خُصَّ في القرآنِ بدفعِ الصَّدقةِ، فهو الإعطاءُ على وجهٍ مقبولٍ، وفيه أيضًا حثُّ الفقيرِ مِن أهل الإسلام والإيمان على توصيل الزَّكاة إلى المُحتاجينَ، بحَضِّ الأغنياء على ذلكَ؛ إذا لم يكن في مقدوره.

(1) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248.
(2) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248 - 249.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"